الفصل الثالث

صحـــوة العـــرب

١ ـ صحوة العرب

ما أن صحت مصر حتى صحى العرب. وما أن ينبض القلب حتى يتحرك الجسد. وما قيمة قلب بلا جسد؟ وكيف يتحرك جسد بلا قلب؟ كلاهما قيمة. ووجود كل منهما مشروط بوجود الآخر دون فضل أو تفاضل.

ولقد أدرك ذلك الأعداء قبل الأصدقاء. ففى مذكرات كيسنجر عن حرب اكتوبر ١٩٧٣ عاتبته جولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل في ذلك الوقت بأنه لم يقدم لإسرائيل بما فيه الكفاية، وهو يهودى! فأجاب: "أنتِ يا سيدتى لا تعملين مدى الخدمة التي قدمتها إلى إسرائيل. لقد أخرجت مصر من المعركة!" وكان الطيار الإسرائيلى الأسير إذا ما أفاق يسأل: "هل الحرب مازالت مستمرة؟" فإذا ما أجيب بالإيجاب غشى عليه مرة أخرى: وإذا ما أفاق يسأل "هل مصر ما زالت تحارب؟" فإذا ما أجيب بالإيجاب غشى عليه مرة ثانية. فقد تعود أن ينهزم العرب في حرب خاطفة، وأن تطالب مصر بوقف إطلاق النار.

هنا جاءت خطورة الصلح المنفرد الذى عقدته مصر أولا منذ زيارة القدس في نوفمبر ١٩٧٧ حتى اتفاقيات كامب دافيد في ١٩٧٨ ومعاهدة السلام في ١٩٧٩ أمام رفض إسرائيل مفاوضة العرب ككل حتى تستأسد بالعرب دولة وراء أخرى، وفي مقدمتهم الأخ الأكبر مصر. وتفرق العرب، وغادروا مصر، وانعزلت مصر عن العرب حتى جاءت الانتفاضة لتجعل من شعب فلسطين في ذروة المواجهة مع الاحتلال كى تعيد الأمل من جديد في تجميع العرب وراءها. أطفال الحجارة يسبقون حكام العرب، ويأخذون زمام المبادرة منهم.

ومع ذلك مازال الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل قائماً. وما زال هو الوحيد المطروح على الساحة العربية للأردن وسوريا ولبنان. يختلف العرب فيما بينهم، بين دول الرفض ودول الاستسلام، بين دول الطوق ودول الهامش، بين دول

البيان ١٩٩٦/٧/٨

"الضد" ودول "المع". ويختلف الكل حول مكان المفاوضات وزمانها، حول شكل المائدة، مستديرة أمام مربعة، وحول المفاوضين عسكريين أو سياسيين، مباشرة بين الأطراف أو عن طريق الوسطاء والرحلات المكوكية.

وفي غياب الاجماع العربى، والتجمع العربى، والعمل العربى المشترك، بعد غياب القومية العربية التى كانت تنصهر الدول القطرية فيها، بدأت ظواهر الشقاق بين العرب في الخلاف حول الحدود المصطنعة التى ورثها العرب من الاستعمار زرعاً للشقاق ومنعاً للوحدة: الخلاف بين البحرين وقطر حول الجزر، بين مصر والسودان حول مثلث حلايب وشلاتين، بين مصر وليبيا حول واحة جعبوب وقبائل ولاد على إلى أى قطر تنتسب، وبين الجزائر والمغرب حول واحة تندوف، وبين السعودية واليمن حول عسير ونجران وحتى بين فلسطين والأردن حول وادى الحمّة.

وقد تصل خطورة القطرية إلى إثبات حق قطر تاريخى في أراضى قطر آخر من الأقطار المجاورة. فيقوم بغزو واحتلاله كما حدث في غزو العراق للكويت وتحت شعار القومية وتكوين الوطن الأكبر مشرّعا بذلك لاحتلال الأراضى بالغزو فتسقط حجة العرب في تحرير فلسطين. وفي غيبة مصر، الأخ الأكبر القادر على حل الخلافات بين الاقطار دون تدخل الاجنبى، بل وبتأييد منه ورغما عنه في مؤتمر القاهرة، يتم تدمير القطر الغازى وحصار شعبه، ووجود قوات الأجنبى على أراضى القطر المغزو أو المهدد بالغزو .

وفي غياب العرب، وفي انحسار المد القومى العربى، وفي احتضار الروح العربى الموحد للأقطار يتم تفتيها إلى وحدات أصغر، انفصال الصحراء عن المغرب، وانفصال جنوب السودان عن شماله، واندلاع حروب أهلية بين فرقاء الوطن الواحد في لبنان والجزائر على نطاق واسع وفي مصر على نطاق أضيق. ويصبح كل قطر عربى مهددا بمخاطر التفتيت والتجزئة باسم الطائفية، سنة وشيعة في العراق والخليج، مسلمون ومسيحيون موارنة أو أقباط في لبنان والسودان، ومصر، أو باسم الأقليات، أكراد وعرب فى العراق، دروز وعرب فى سوريا

عرب وبربر في المغرب العربى، عرب وأفارقة في السودان. وتكثر الدراسات عن الأقليات والطوائف والملل والنحل والاعراق والمذاهب في الوطن العربى. ويتم تقطيع الجسد العربى بين سلفيين وعلمانيين، إسلاميين وقوميين، محافظين وتقدميين، أصوليين وحدثيين حتى لم يعد العربى عربيا وكفى، ولابد له من هوية أخرى.

وفي غياب الانتماء العربى والولاء العربى والقضية العربية دخلت بعض الأقطار في حروب مفتعلة لا قضية فيها ولا هدف لها مثل حرب العراق وإيران، حرب الخليج الأولى. وتركت أقطار عربية أخرى بمفردها تدافع عن أراضيها مع دول الجوار مثل الجزر في مدخل الخليج بين الامارات وإيران، أو في مدخل البحر الأحمر بين اليمن وإريتريا وكأن الأمر لا يعنى الوكطن العربى وتأمين حدوده من الشرق والجنوب. وحمل الجزء رسالة الكل حتى ناء بها، وعجز عنها، تكليفا بما لا يطاق.

وبدأ التآكل في الأطراف نظراً لغياب صلة الأطراف بالقلب في الوسط. وبدأ الحديث حول المخاطر على عروبة الخليج من آسيا وعلى عروبة السودان وعلى عربة الصحراء في أفريقيا. وبدل أن يكون الوطن العربى مركز الثقل فى أفريقيا وآسيا أصبح مهدداً بتآكل أطرافه من محيطه الأوسع نظراً لغياب المركز فيه والانجذاب من الأطراف نحوه.

وقد تؤثر بعض الأقطار بعد اليأس من القلب والعروبة والعرب الذين لا يأتى منهم إلا المشاكل والخلافات التحول إلى دوائر حضارية وثقافية واقتصادية أخرى. فالمغرب الأقصى تغريه الوحدة الأوروبية عبر مضيق جبل طارق، وأن يصبح عضوا بها، فكلاهما غرب. كما أن المغرب يتمتع بخصوصية عقلانية علمية متميزة عن الخصوصية المشرقية الصوفية الاشراقية. وشمال أفريقيا كله قد يكون أقرب أوربا منه إلى الجناح الاسيوى للوطن العربى. إذ يقع فى جنوب البحر

الأبيض المتوسط، وأوربا فى شماله. والمسافة بين الجنوب والشمال أقل من المسافة بين المغرب العربى والمشرق العربى.

هكذا وصل حال العرب منذ الصحوة العربية الأولى فى أوائل هذا القرن حتى صحوته الثانية على يد حزب البعث العربى الاشتراكى ثم الناصرية التى جسدت القومية العربية فكراً وممارسة. وأصبح الحديث عن العرب والقومية العربية حديث الماضى البعيد أو الماضى القريب، من تراث الخطابة ونهج البلاغة وهو ما تعتبره إسرائيل من تراث الحروب. أصبح العرب بلا عروبة. مجموعة من الأعراب أو العرب الذين يصدق عليهم قول ابن خلدون " فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب!".

فقد العرب القضية، وافتقدوا الرسالة، ونسوا شعار "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة". وعز الطموح العربى، وغاب عن الذهن بطولات العرب، وذكريات خالد بن الوليد، وعبيدة بن أبى الجارح، وطارق بن زياد. لم يشأ العربى القديم أن يبنى قصره إلا فوق قمم الجبال، وآثر العربى الحديث أن يعيش فى الخيام والمخيمات والمناطق العشوائية والمقابر وعلى الارصفة ونواصى الطرقات. افتقدوا النبوة والولاية كما يقول ابن خلدون أيضاً "في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين". والسياسة دين العصر. والدين سياسة القدماء. وكل مذهب سياسى يريد السيطرة على العالم، الرأسمالية أو الاشتراكية إلا العرب الذين آثروا أن يكونوا هم المسيطر عليهم، هم الفريسة التى تتقاتل عليها السباع.

وجاء مؤتمر القمة الأخير بالقاهرة للم الشمل العربى، والاتفاق على الحد الأدنى من الاجماع العربى على الحق العربى. وصحا العرب، وأدركوا فى النهاية أن العروبة خير ملاذ لهم ضد المخاطر الخارجية من الأحلاف الخارجية مع الشرق أو الغرب. وتفاهم العرب، ووجدوا لغة مشتركة تقدر الاختلاف وتحرص على الاتفاق، تقلل من مساحة الخلاف وتزيد من مساحة الاتفاق. واتحد العرب

وأصبح لهم صوت واحد، ورسالة واحدة، وموقف واحد يمكن التحدث باسمه وإبلاغه للناس. لم يختلف العرب فى تحديد من هو العدو ومن هو الصديق كما حدث فى اجتماع وزراء الخارجية العام الماضى، من الداخل أم من الخارج، العراق أم إسرائيل؟ وظل مكان العراق شاغراً، والعراق حاضر فى القلوب، وحصاره فى الأذهان. وغامر الرئيس المحاصر فى الوطن العربى مخترقا الحظر الجوى للقاء العرب. وتكلم المتخاصمان، وتحاور المتنافسان، وتقارب المتباعدان، وتصافى المتباغضان. وحظى العرب باحترام عالمى للغة الخطاب الجديد، العاقل المسؤول الذى يصون ولا يبدد، يحمى ولا يهدد. وفهم العالم الرسالة، وأحس بالعرب من جديد بعد أن كانوا من ذكريات الماضى.

ظهر العمق العربى من عبق التاريخ يكشف عن استمرار وجودهم المتصل حتى ولو تقطعت بهم الأوصال وانتابتهم المحن، غزوات الصليبيين من الغرب وهجمات التتار والمغول من الشرق، والاستعمار الحديث من الغرب مرة أخرى بما فى ذلك الاستيطان الصهيونى. وعاد من اللاشعور العربى شذا القومية العربية الحديث من حلاوة الخمسينات والستينات، من باندونج ودلهى وبلجراد والقاهرة. وعاد المنطوى إلى الظهور، والمحبط إلى الابداع، والحزين إلى الفرح، والمناضل القديم إلى شبابه الأول. وتوحد التاريخ البعيد، وتواصل الزمن القريب، من طارق بن زياد إلى عبد الناصر، من وحدة شبه الجزيرة العربية فى التاريخ البعيد إلى وحدة مصر وسوريا فى التاريخ القريب.

صحا العرب ليصوغوا وجودهم فى عصر التكتلات: الوحدة الأوربية، المجموعة الصناعية السبع، دول جنوب شرق آسيا، الوحدة الأفريقية ... إلخ. ولم تعد الولايات المتحدة الأمريكية تمتلك أوراق اللعبة كلها فى المنطقة. فرنسا فى الصدارة، وأوربا فى المقدمة، وروسيا الاتحادية تصحو كذلك فى الوجدان لتوحد بين ماضيها ومستقبلها عبر حاضرها الأليم. ولم تعد الصحوة الإسلامية هى الوحيدة على الألسن بعد الصحوة القومية. هناك الصحوة الوطنية للشعوب ضد التبعية

وحفاظاً على الاستقلال. وتبحث المناطق الحضارية القديمة عن أقطاب بديلة عن القطب الواحد الذى استأسد بالعالم منذ أوائل العقد الأخير من هذا القرن، جنوب شرق آسيا بنهضة الصناعية، روسيا والصين بتحالفهما القادم، العالم الاسلامى العربى الأسيوى أو الوطن العربى. لذلك يتم التركيز على الوطن العربى بالحصار من الخارج للعراق وليبيا والسودان والاجهاض من الداخل لمصر.

وتستمر صحوة العرب بجوار العرب مع أنفسهم من أجل إنهاء الخصام بين فرقاء النضال المشترك، وفي مقدمة ذلك الحوار بين الاسلاميين والقوميين. ومن الفريقيين قامت حركة الاستقلال الوطنى، من الأفغانى وساطع الحصرى، من الاخوان المسلمين وحزب البعث العربى الاشتراكى، من حسن البنا وعبد الناصر. وقد جسد الكواكبى هذه الوحدة بين الفريقين فى "طبائع الاستبداد" و "أم القرى". وفي المغرب العربى الكبير الوحدة قائمة بين الحركة الإسلامية والحركة القومية والحركة الوطنية. والليبرالية أداة الجميع، حرية الرأى. وقد كان نضال الاسلاميين والقوميين فى العقدين الأخيرين، عصر الردة والنكوص، بارقة أمل على استمرار تنضال الأمة باسم الاسلام والعروبة من أجل الوطن. فى الخمسينات والستينات كانت العروبة تناضل بمفردها والاسلام سجينا. وفي السبعينات والثمانينات حوصرت العروبة أو أجهضت والإسلام هاربا.

وأول حركة بعد صحوة العرب، للجسد الهامد، حركة الرأس المتمثلة فى حرية انتقال المطبوعات. فالكتاب ليس جريمة. والجريدة ليست عدوانا حتى توحد الثقافة ما قد تقطعه السياسة، وحركة اليد المتمثلة فى حرية الاستيراد والتصدير حتى يوحد الاقتصاد ماقد تقطعه النظم، والوحدة الاقتصادية تسبق الوحدة السياسية، وحركة الرجل المتمثلة فى حرية التنقل من قطر إلى قطر دون مطالبة بتأشيرة دخول أو مراجعة على قوائم المطلوبين والمبعدين والمطالبين. ودون حركة الجسد بالرأس والذراع والساق تكون الصحوة مجرد يقظة وعى يُخشى عليه من العودة إلى الاغماء من جديد. والحد الأدنى من الفعل خير من الحد الأقصى من القول أو التمنيات.

٢ ـ نظام العالم أم نظام العرب؟

كثر الحديث فى السنوات الأخيرة عن نظام العالم الجديد واختلافه عن نظام العالم القديم بعد انهيار الاتحاد السوفيتى والنظم الاشتراكية فى أوربا الشرقية بين مثبت ومنكر. فالاثبات يقوم على انتهاء عصر الاستقطاب وبداية العالم ذى القطب الواحد على حل مشاكله. والدليل على ذلك البوسنة والهرسك وفلسطين. والانكار يقوم على أن العالم القديم ما زال قائماً، وإنما الذى تغير هى الصياغة. فما زال الاستقطاب فى العالم قائماً بين أوربا وأمريكا، بين الصين وأمريكا، بين اليابان وأمريكا، بالإضافة إلى الاستقطابات الأخرى المحلية داخل كل منطقة، داخل أوربا نفسها بين ألمانيا وفرنسا، وداخل الشرق الأقصى بين اليابان وكوريا، بين تايوان وسنغافورة، بل وداخل أمريكا نفسها بين الجمهوريين والديموقراطيين حول الميزانية.

وبدأ إحساس عام لدى النخبة ولدى الجماهير، بين الحكام والمحكومين، بين القادة والاعلاميين والمثقفين بأن الداخل يتغير بناء على ما يحدث فى الخارج، وأن السياسات العربية تتأثر سلبا أو ايجابا بهذا النظام العالمى الجديد ذى القطب الواحد بعد أن تأثرت بالنظام العالمى القديم ذى القطبين. فعلى العرب الاستعداد إستراتيجيا وسياسيا واقتصاديا وأمنيا لايجاد علاقات جديدة مع نظام العالم الجديد حتى يواكبوا التطور، ولا يتخلفوا عن الركب ومسار التاريخ.

والحقيقة أن هذا الاحساس قد يكون قائما على وهم أن العالم يتغير بالفعل، وأن هذا التغير يحدث فى سنة أو سنتين أو عشر سنوات أو عشرين. فطالما تحدث الناس فى أوائل السبعينات عن نظام العالم الجديد، ونهاية الحرب الساخنة وبداية الحرب الباردة أو التعايش السلمى. والعالم لا يتغير فى عشرين عاما. مراحل التاريخ تحتاج إلى وقت أطول وأكثر من جيل وبما أكثر من قرن من الزمان.

البيان ١٩٩٦/٢/٢٩.

فالغرب الحديث فى عصوره الحديثة التى بدأت منذ القرن الخامس عشر عصر الاصلاح الدينى والانطلاق بحراً إلى الغرب عبر نصف القارة الغربى، وبحراً إلى الشرق إلى جنوب شرقى آسيا باسم الكشوف الجغرافية، نهاية الاقطاع وبداية الرأسمالية - مازالت قائمة، تجدد نفسها كما يقال أو تهرم وتنتهى كما يقال أيضاً. وقد استغرقت هذه المرحلة ستة قرون. ولم تنته بعد، بل تتجدد دماؤها بكثرة الآمال أو الأوهام حول القرن الواحد والعشرين.

وقد ينشأ هذا الوهم بالتغير فى نظام العالم بوقع الصدمة أمام تغير النظم السياسية مثل انهيار الاتحاد السوفيتى بعد انتصار الثورة الاشتراكية فى ١٩١٧ وبعد نضال طويل من أجلها ثم إقامة المنظومة الاشتراكية فى أوربا الشرقية بعد الحرب الثانية فى ١٩٤٥ وبعد الآمال الطويلة التى كان يمثلها بالنسبة لحركات التحرر فى العالم الثالث والذى كان له بالفعل الفضل فى تدعيمها وتنمية موارده وتأهيل كوادره.

كما قد ينشأ هذا الوهم من نوع من التبعية فى التفكير، والنقل عما يدور فى الغرب من تحليلات. صحيح أنه بالنسبة للغرب الرأسمالى والأمريكى هناك تغير حدث بالفعل، وهو غياب العدو الرئيسى له والذى بسببه بنى قوته العسكرية، وأقام أحلافه مثل الحلف الاطلنطى، وخطط موارده وأقام صناعاته، أنه كان يشعر بالخوف من هذا التحدى للنظام الرأسمالى خاصة بعد تعاطف شعوب العالم الثالث مع الاشتراكية وتبنيها لها باسم الاشتراكية العربية أو الاشتراكية الأفريقية وبعد ما أدته الأحزاب الماركسية من دور فى حركات التحرير الوطنية. أما بالنسبة لنا فقد فقدنا الحليف بعد الوقفة مع الصديق ولكن لم يتغير شئ جوهرى عندنا. ولكننا تعودنا على التفكير فى النفس بمنطق الآخرين، وإعطاء الأولوية للآخر على الأنا، وتفسير كل ما يحدث عندنا بعوامل خارجية، ربما لغياب القدرة على تحليل الذات ومعرفة النفس خوفا أو هروبا. فمن يحلل واقعه المحلى لا بد وأن يصطدم

بالضرورة بالنظام السياسى القائم. فاتقاءً للشبهات يتم التحليل على مستوى الخارج أولا وانعكاساته على الداخل ثانيا. الخارج هو المركز، والداخل هو المحيط.

وقد ينشأ هذا الوهم أيضاً من الرغبة فى التعالم والاطلاع على أحدث التحليلات فى العلاقات الدولية والنظم السياسية وآخر ما نشرته الدوريات المتخصصة حتى يبدو العالم وكأنه مطلع على أحدث النظريات وآخر التحليلات فتنتبه إليه القوى الغربية، وتقدر علمه وإطلاعه، وترنو إلى التعاون معه. ويوهم القراء فى الداخل بالعلم الغزير تعمية لهم عما يحدث فى واقعهم والذى يشعرون بمآسيه ويعايشونها يوميا، ويعرفون أسبابها المباشرة دون ما حاجة إلى تنظير أو تحليل العلماء المتخصصين. فإذا ما قرأوا هذه التحليلات المتعالمة أدركوا أن الأمر أصعب مما تصوروا، وأن التغيير أصعب مما تخيلوا، فينتظرون الفرج القريب على أيدى جهابذة العلم الذين بيدهم مقاليد فهم نظم العالم الجديد.

ويبدو أن التفسير باعطاء الأولوية للخارج على الداخل عادة متبعة ومتأصلة فى رؤيتنا للعالم. ففى النظام العالمى القديم تعودنا على أن نفسر كل الحركات الشعبية ضد غلاء الاسعار أو ضد العدوان الخارجى أو المطالبة بالحريات العامة بالعوامل الخارجية وكأننا جثث هامدة لا نتحرك إلا بفعل فاعل. فالغاضبون إما من أنصار الاتحاد السوفيتى وعملاء له إذا كانوا من الليبراليين، او من أنصار إيران إن كانوا من الاسلاميين أو من أنصار العراق وليبيا وسوريا أن كانوا من القوميين.

والحقيقة أن أحوال العرب لم تتغير كثيراً من النظام العالمى القديم إلى النظام العالمى الجديد. فهزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، ونصر تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ كانا فى النظام القديم. وقبول مبادرة روجرز والخلاف حولها بين مؤيد من الحكومات ومعارض من الشعوب كان فى النظام القديم مثل معاهدات السلام الآن بين مؤيد من الحكومات ومعارض من الشعوب فى النظام الجديد. وتسليح إسرائيل كان على نفس الوتيرة فى النظامين القديم والجديد. وتراكم الديون العربية، والفساد، وقمع الحريات العامة، واحتلال الأرض، وحصار العراق، والانشقاق العربى،

وحرب الخليج وتوابعها، وتسويات السلام، والغلاء كل ذلك كان مستمراً من النظام القديم إلى النظام الجديد.

كما أن نظام العالم نفسه، الانتقال من توازن القوى إلى توازن المصالح، والاستقطاب، والشركات العابرة للقارات، والنزاعات المحلية والدولية لم يتغير كثيراً في النظامين القديم والجديد. فالاستقطاب بين الشرق والغرب مازال موجوداً، بين الصين واليابان وكوريا وتايوان وسنغافوة وماليزيا والملايو من ناحية وبين الغرب الأوربي والأمريكي مازال قائماً على مستوى المصالح وحرب الاسواق. والاستقطاب داخل كل معسكر مازال قائماً أيضاً بين اليابان وكوريا أو بين اليابان والصين حتى ولو كان في شكل تعاون مستقبلي لتحديد الاستقطاب واحتمال تعارض المصالح مازال قائما. والاستقطاب إلى حد الصراع في المعسكر الغربي أيضاً مازال موجوداً بين أوربا وأمريكا أو بين دول أوربا نفسها، بين فرنسا وألمانيا، أو في نصف الكرة الغربي بين أمريكا من ناحية والأرجنتين والبرازيل من ناحية أخرى إلى عهد قريب.

لذلك فالأولوية للداخل على الخارج. ولنظام العرب على نظام العالم. لا يتقرر شئ في الخارج ألا إذا تقرر في الداخل أولاً. ووزن العرب في الخارج هو وزنهم في الداخل أولاً. واحترام العرب والثقة بهم في الخارج يأتي بعد احترام العرب لأنفسهم والثقة بأنفسهم أولاً. نظام العرب يحدده العرب، وليس النظام العالمي القديم أو الجديد، الماضي أو القادم.

ونظام العرب لم يتغير في مجموعه في النظام العالمي القديم أو النظام العالمي الجديد. فهو أقرب إلى الثبات منه إلى التغير، لدى الحاكم أو المحكوم. الثبات فضيلة والتغير رذيلة. سبحان من له الدوام. والكل يتذكر ﴿كل شئ هالك إلا وجهه﴾ وينسى ﴿ولله في خلقه شؤون﴾ أو ﴿كل يوم هو في شأن﴾. فقد استقرت الثقافة العربية على الثابت دون المتحول. وورثنا هذا الاستقرار حتى أصبح التغير عورة، والثبات سترا.

وليس الوضع بمستحيل، ولا التغير بعيد المنال. إنما القضية كيف يحدث، ومتى، وفي أى اتجاه؟

والحقيقة أن قضية الحريات العامة للأفراد والجماعات والتنظيمات والأحزاب السياسية بل وللدول ذاتها مازالت حجر العثرة الذى يعوق التغير فى الوطن العربى، ويقف فى طريقه. ولا تغير يبدأ الابآليات التغير وفي مقدمتها الحريات العامة التى تكفلها الطبيعة ويؤكدها الشرع. فحرية الفكر والتعبير والجهر بالرأى حق مشروع. تكفله الدساتير العربية والمواثيق الدولية وترعاه حقوق الا نسان. فلا يُضطهد رأى، ولا يُكفر اجتهاد، ولا يُستبعد تيار فكرى. وترتبط بحرية الفكر والتعبير حقوق الإنسان ضد الاعتقال والتعذيب والمنع والحصار.

فإذا ما تحولت الحرية إلى النظام الاجتماعى تصبح نظاما ديموقراطيا يختار الشعب فيه من يمثله سياسيا. فالحرية والديموقراطية واجهتهان لعملة واحدة. والفرد الحر يعيش في مجتمع ديموقراطى. الحرية للفرد، والديموقراطية للحكم.

ولما كانت الآراء بطبيعتها متعددة لأن الناس لهم مشارب مختلفة واتجاهات متعددة ومصالح أحيانا متفقة وأحيانا متضاربة أصبحت التعددية أحد مظاهر الديموقراطية. وحق الاختلاف حق طبيعى وشرعى.

وخلق الله الناس مختلفين للتعارف والتناصح والتشاور. فالكل راد والكل مردود عليه. والاحتكار ليس فقط للسلعة بل للرأى. ولاخاب من استشار. وقد تراكمت علينا المصائب، مصائب الفرقة والتجزئة والحروب بسبب الاستئثار بالرأى وعدم المشورة والانفراد بالقرار. الحق ليس ملكاً لأحد وكل البشر يجتهدون فيه.

ويمكن للعرب أن يبدأوا بذلك. فالحرية والديموقراطية والتعددية جزء من تاريخهم القديم فى عصرهم الذهبى الأول، فى القرن الرابع الهجرى، عصر البيرونى والمتنبى وابن سينا. كانت هناك مدارس فقهية مختلفة، وتيارات فكرية

متعددة، وطرق صوفية متباينة، وفرق كلامية متحاورة. وهذا الثراء الضخم للثقافة العربية إنما هو نتاج التعددية القديمة. بل أن القرآن الكريم مصدر الثقافة العربية الأول حاجج الخصوم. ولم يكفّر القدماء أُحداً بل ردوا عليه وحاججوه. كان التكفير والاستبعاد والاستقصاء من وحى السلطة، عزلاً سياسيا بحجة الفكر، وتدعيما للسلطة بحجة الدفاع عن الشرع.

وبعد أن يعد كل قطر عربى نفسه أولا يبدأ التكامل العربى فى كل منطقة مع دول الجوار فى المغرب العربى، وفي الشام، وفي شبه الجزيرة العربية. فدول الجوار أقرب إلى التعاون فيما بينها تدريجياً عن الوطن الكبير. ثم يبدأ التكامل على صعيد الوطن الأم بين المناطق الثلاث، ومصر فى قلبها. فهى امتداد المغرب العربى شرقا، وامتداد صحراء الشام جنوباً عبر سيناء، وامتداد شبه الجزيرة العربية شرقا عبر البحر الأحمر.

فى هذا الوقت يعود الاستثمار العربى من الخارج إلى الداخل ، وتزدهر الصناعة العربية والزراعة العربية والخدمات العربية. ويتم ذلك بصرف النظر عن نظام العالم القديم أو الجديد. بل يتغير نظام العالم بتغير نظام العرب. عندما يصبح العرب كتلة، ميزان ثقل فى العالم، قطبا فيه، وعاملاً مؤثراً فى صياغته. والبداية بنظام العرب حتى يتغير نظام العالم. والبداية بنظام العرب فى أيدى العرب أنفسهم.

٣ ـ الرأى العام العربى

تسود فكرة شائعة خاصة فى أوقات الأزمات ولحظات الهزيمة أن هناك فرقا بين الشعوب والحكام، وأنه لو كانت مصائر الشعوب بأيديها لما حدثت الأزمة ولما وقعت الهزيمة. فالنظم السياسية وفي قلبها وعلى رأسها حكم الفرد المطلق هى التى تهزم أما الشعوب فإنها باقية إلى الأبد. ويتوالى الحكام ويبقى الشعب.

ويقال نفس الشئ فى بعض تحليلات العوامل التى تعوق الوحدة العربية. لو تركت الشعوب العربية بمفردها لتوحدت ولكنها خاضعة للحكام يغلبون مصالحهم الخاصة على المصالح العامة، ويحرصون على إبقاء الأنظمة السياسية حتى على أمم مبعثرة متجزئة تنحر فيها الحروب الأهلية، وتهددها الطائفية.

وقد يكون أحد الأسباب غياب الديموقراطية التى يعبر من خلالها الشعب عما يريد مثل المجالس النيابية المنتخبة انتخابا حراً دون تعيين أو تزييف، والدستور الذى من خلاله يعرف المواطنون حقوقهم وواجباتهم وفي مقدمتها حرية التعبير دون خوف، والصحافة الحرة التى تقوم بدورها فى النقد والنصح، والأحزاب المتعددة التى تعبر عن كافة الاتجاهات الفكرية والقوى السياسية فى البلاد، والمنظمات غير الحكومية والجمعيات الأهلية وفي مقدمتها منظمات حقوق الإنسان التى تقوم بالدفاع عن حقوق الافراد والجماعات المضطهدة، والنقابات المهنية وانتخاباتها الحرة ودفاعها عن استقلالها ضد محاولات السيطرة عليها واحتوائها.

لذلك تميزت اللحظة العربية الراهنة بالدفاع عن الديموقراطية وحقوق الإنسان. وتوارت قضايا العدالة الاجتماعية والتنمية بل ومناهضة الاستعمار والصهيونية وأصبحت سبعينات وثمانينات هذا القرن تنحو نحو مخالفا عن الخمسينات والستينات. ويظل السؤال الكبير: إلى أين التسعينات ونحن على مشارف قرن قادم؟

البيان ١٩٩٦/٧/٢٢

وأصبح مشهوراً قدرة الحكام على الانفراد بالقرار السياسي الذى قد يغير مجرى التاريخ وحياة الشعوب دون استشارة الرأى العام وأدوات تعبيره وذلك مثل زيارة القدس فى نوفمبر ١٩٧٧، واتفاقية كامب دافيد فى ١٩٧٨، ومعاهدة الصلح بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٩، وغزو العراق الكويت فى ١٩٩٠. تتغير سياسات الأمم واستراتيجيات الشعوب مائة وثمانون درجة، من النقيض إلى النقيض بمجرد قرار فردى من الحاكم فى غياب الرأى العام أو هكذا يبدو. وتقوم أجهزة الاعلام الرسمية بالتبرير والتنظير لما يصدر عن الحكام من قرارات، سلماً أم حرباً، خصخصة أم تخطيطاً مركزيا للدولة. فالناس على دين ملوكهم. ولا فرق فى ذلك بين المؤسسة السياسية والمؤسسة الدينية. ومن يخرج عن ذلك فإنه يكون من الملحدين أو العملاء.

هكذا تروج أجهزة الاعلام الغربية لحالة الرأى العام العربى وتحكم عليه بالغياب. وتفضل القوى الخارجية التعامل مع الحكام الأفراد أكثر من التعامل مع الشعوب وممثلى الرأى العام. وهى نفس القوى التى تستعمل سوط الديموقراطية وحقوق الإنسان وتلوح به فى وجه الحكام إذا ما رفضوا الضغوط أو الاستسلام للسياسات المفروضة عليهم. تُؤيد حكم الفرد المطلق لما يؤديه من منافع لها، وتنعى الديمقراطية وغيابها وحقوق الإنسان وانتهاكها.

والحقيقة أن الرأى العام العربى موجود ولو بطريقة غير منظورة. فهو موجود أولا بطريقة مباشرة فى صحف المعارضة فى بعض الأقطار التى تسمح بالتعددية السياسية فى الداخل أو فى نشرات جماعات المعارضة فى الخارج حتى وإن كانت محدودة الأثر. وهو موجود أيضاً بالقدر المتاح ودون عبور الخطوط الحمراء فى الصحف الرسمية للدولة. وهو موجود أيضاً فى أحزاب المعارضة فى الداخل والخارج بالرغم من ضعفها وانحسار جماهيرها وغياب رؤية بديلة أو استراتيجيات مستقبلية عن السياسات القائمة. وهو موجود فى الاتحادات والنقابات

والجمعيات الأهلية التى تصارع من أجل البقاء والاستقلال ضد هيمنة النظم السياسية عليها.

وتمثل الحركتان الإسلامية والقومية أكبر حركتين للمعارضة السياسية والتعبير عن الرأى العام العربى حتى ولو لم يكن لها تنظيمات رسمية وأحزاب سياسية معترف بها. فالحاكم الفرد يعمل الف حساب لها لهاتين الحركتين القادرتين على تأليب الرأى العام ضده. فمازالت الشرعية فى الحكم فى الثقافة الشعبية للاسلام وللنضال الوطنى. لذلك كان الحوار الاسلامى القومى وسيلة لتجميع المعارضة والتعبير عن الرأى العام العربى الذى لا يستطيع الحكام تجاهله لأنه هو المحدد الفعلى لقدراته على الحكم والتفرد بالقرار.

الرأى العام العربى موجود بطريقة غير منظورة كقوة محركة للتاريخ وجدار يصطدم الحكام به. فهناك حدود لقدرة الفرد وسلطته المطلقة. وهو غير مرئى فى أجهز الاعلام وقنوات الرأى العام ولكنه مؤثر وفعال فى سلوك الناس وفي تصوراتهم للعالم. هو الغائب الحاضر، اللامرئى والمرئى، المعدوم والموجود فى آن واحد.

هناك الثوابت فى السياسة العربية التى لا يمكن أن تتغير مهما بلغت سطوة الحكام. فالعرب أمة واحدة بالرغم مما بينهم من حدود قطرية واختلافات سياسية على الصغير والكبير. لذلك استطاع العرب مقاومة الأحلاف العسكرية التى كانت تريد استقطاع هذا القطر أو ذاك وضمه فى تجمع خارج المنطقة العربية، تركيا، إيران، باكستان، وإسرائيل هذه الأيام فى الشرق أوسطية أو المتوسطية كبدائل عن القومية العربية.

والحركة الوطنية العربية فى مواجهة الاستعمار القديم والجديد والصهيونية كسياسة توسعية عنصرية أحد الثوابت فى الرأى العام العربى. فهناك حدود لقبول التحالف مع القوى الاستعمارية الجديدة الممثلة فى الولايات المتحدة الامريكية. وهناك حدود للاعتراف بالصهيونية كأيديولوجية والاستسلام لأطماعها والوعود

البراقة فى التنمية والتقدم والتصنيع. فقد نشأ تاريخ العرب الحديث من المقاومة، ومازال يتحرك بالمقاومة. وكان الخطر الخارجى فى حياته اكثر دفعا له على الحركة من المخاطر الداخلية.

وهناك الطبيعة العربية، والتاريخ العربى، والخيال العربى، والشعر العربى القادر على الدفاع عن الاستقلال والهوية والتمايز بين الأنا والآخر، وعدم التميع والذوبان فى حساب البورصات وأرصدة البنوك. هناك التراث العربى واللغة العربية المستمران عبر التاريخ منذ امرؤ القيس حتى أحمد شوقى. وهناك الأمثال العربية التى تكوّن رصيدا ثابتا للشخصية العربية. وهناك الطبيعة البشرية التى ترفض العنصرية والتوسع والاحتلال، الفطرة والصبغة التى تجعل العربى صادقا مع النفس ومع الآخرين، حراً مبدعا باتساع الصحراء.

هذا هو الرأى العام العربى غير المنظور، الخط الأحمر الذى لا يستطيع الحاكم العربى عبوره. وقد كانت معظم الهبات الشعبية الأخيرة والثورات العربية القريبة دفاعا عن هذه الثوابت فى الرؤية العربية. وربما كان الاغتيال السياسى، مثل اغتيال السادات فى اكتوبر ١٩٨١، أحد المؤشرات على تجاوز الحاكم الخط الأحمر فى الرأى العام العربى وفي الثوابت العربية، الحد الأدنى للدفاع عن الكرامة العربية والعرض العربى والاجتماع العربى كما بدا فى مؤتمر القاهرة الأخير للقمة العربية.

كان العرب قد وصلوا إلى الخط الأحمر الذى يصعب تجاوزه. اعطاء كل شئ دون أخذ شئ. الدفع نقداً والبضاعة مؤجلة بلغة التجار. وتم ايقاف الهرولة، هرولة التطبيع، واللحاق بالمكسب قبل أن تفتح الاسواق، ونيل الغنم بصرف النظر عن الغرم. وتراجعت بعض الاقطار عن مكاتب التجارة والسياحة والتمثيل واللاءات الثلاثة الجديدة تصم الآذان.

أن التعبيرعن الرأى العام العربى له أشكال متعددة. كما أن الديمقراطية لها صور مختلفة. فبالرغم من أن أجهزة الاعلام فى الأقطار العربية فى يد الدولة

وتحت سيطرة الحزب الحاكم باستثناء نسبى للبنان الا أن الرأى العام العربى يعبر عن نفسه خارجها مثل جنازة عبد الناصر عندما حملت الملايين النعش على الاعناق ومسيطرة على أجهزة الدولة الرسمية مقارنة بجنازة خلفه التى حضرها الرؤساء الامريكيون الأربعة السابقون وبعض رجالات الغرب. كما خرجت الألوف فى المغرب ومصر والاردن ولبنان ضد الغزو الامريكى للعراق من أجل تدميره ثم حصاره بالرغم من تحرير الكويت.

سيظل الرأى العام العربى موجوداً وأن غاب عن المؤسسات الرسمية وأجهزة الاعلام فى الدولة ، يهمس به العربى فى أذن العربى فى المنتديات الخاصة والديوانيات والمهرجانات الفنية والأعمال الأدبية. يقبع فى القلوب ولكنه لا يموت. ينفجر بين الحين والآخر، ويصحح المسار السياسى، ويذكّر الحكام بالخط الأحمر إذا ما تجاوزوه. فهو فى نفس الوقت ناقوس الخطر وصمام الأمان. لا يمكن احتواؤه فى القنوات الرسمية ولا يمكن القضاء عليه بأجهزة الأمن وسياسات المنع والحظر وتكميم الافواه.

ومع ذلك، يستطيع الرأى العام العربى أن يفرض نفسه على القنوات الرسمية للاتصال ويصبح المحرك الرئيسى لأجهزة الاعلام على الأمد الطويل لصالح الحكام قبل الشعوب. إذ يحدث أحياناً أن يصبح الحاكم عبئاً ثقيلاً على القوى الخارجية المتحالف معها بعد استنفاد الفرص منه وتحقيق مصالحها من خلاله، فتجعله كبش الفداء وتتخلص منه بثورة شعبية أو انقلاب عسكرى أو اغتيال سياسى، تنفيذ محلى وتخطيط أجنبى. كما أن الشعوب تضج أحياناً من الحصار بين الرأى العام العربى غير الرسمى وأجهزة الدولة التى لا تعبر عنها، وتريد تجاوز هذا الفصام الاعلامى بين الداخل والخارج، بين الحقيقة والزيف، بين الواقع وقراءته.

فمن مصلحة الحاكم والشعب التقارب على الأمد الطويل، أن يتوجه الحاكم إلى الداخل بدلاً عن الخارج، وأن يمد يده إلى الشعب بدلاً من أن يمد يديه الاثنتين

إلى الخارج فتعودان مكبلتين بقيد التبعية أو خاوتى الوفاض. أن ينفتح على الداخل قدر انفتاحه على الخارج وأن ينغلق على الخارج قدر انغلاقه فى الداخل ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

حرية الفكر والتعبير لجميع الاتجاهات الفكرية والقوى السياسية تسمح له بسماع الرأى العام غير المنظور بطريقة مباشرة بدلاً من تقارير الرأى العام الذى تحرره أجهزة الأمن المخترقة بقوى الداخل والخارج. والوحدة الوطنية التى تعبر عن الحد الأدنى للاجماع الوطنى العام مع التعددية السياسية واختلاف الأطر النظرية تجعل الشعب مع الحاكم خاصة فى ساعات الشدة وأوقات الأزمات.

إن امكانيات الشعوب بلا حدود. وقدراتها على الابداع تتجلى إذا ما استطاع الرأى العام غير المنظور أن يخرج من قاع القلب إلى الساحة وأن يتحول إلى حركة جماهيرية تساند الحاكم الوطنى وتشد أزره فى مواجهة الخارج. حينئذ يتحول الغياب إلى حضور، والعدم إلى وجود، والسر الى علن. وتتوحد الأمة مع حركة التاريخ يصب فيها وتصب فيه فتجرف كل ثبات يعبر الخط الأحمر ويخرج على ثوابت الرأى العربى العام.

٤ ـ فلسطين والعرب

إن تحديد وضع العرب فى التاريخ إنما يتم بمعرفة علاقة العرب بغيرهم البعيد، العرب والشرق، العرب والغرب، أو بغيرهم القريب، العرب والأتراك، العرب وإيران. كما يتم أيضاً عن طريق تحديد علاقة العرب بأنفسهم، بأقطارهم وقوميتهم، بدولهم ووطنهم.

ويأتى فى مقدمة ذلك فلسطين والعرب. وتبدأ المعادلة بفلسطين لأنها قضية العرب الأولى ومحور نضالهم الوطنى. فقد يتغير العرب بتغير فلسطين. وقد يؤثر الابن فى سلوك الأب بعد أن راعاه الأب حتى كبر وشب واستقل. وقد يرث الابن معارك الأب، ويرد له دينه.

لقد شكل نضال العرب من أجل تحررهم الوطنى تاريخهم الحديث قبل الثورات العربية الأخيرة. وكانت معاركهم للتنمية استكمالاً لمعاركهم للاستقلال خاصة بعد تراكم ثروات النفط واختيار الاشتراكية العربية والتخطيط الاقتصادى. وببزوغ دولة فلسطين يكتمل التحرر العربى، وينتهى آخر جزء محتل من آثار الإستعمار البريطانى فى الوطن العربى. فتحرير فلسطين هو إكمال حركة التحرر العربى الذى بدأ بثورة ١٩١٩ فى مصر، وقارب على الانتهاء بالانتفاضة والمقاومة الشعبية فى فلسطين وجنوب لبنان.

وإذا كانت الشعارات الوطنية قد ساهمت فى حركة التحرر العربى بصرف النظر عن منطلقاتها النظرية التى تستند إليها مثل "الجلاء التام أو الموت الزؤام"، "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"، "وحدة وادى النيل"، "ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد"، "الحرية والاشتراكية والوحدة"، "الاتحاد والنظام والعمل"، "المسيرة الخضراء"، "الكتاب الأخضر"، "يد تبنى، ويد تحمل السلاح" فإن التحدى الآن هو كيف تصنع الأوطان. لقد ساعدت هذه الشعارات على اليقظة القومية واستثارة

البيان ١٨/٣/١٩٩٦.

الروح الوطنية، وبعث الخيال السياسى. وقد تم استنفاد ذلك حتى تحولت إلى عامل سلب أكثر منها عامل إيجاب. فلا أحد يشكك فيها على مستوى الأمانى الوطنية والعواطف السياسية. ولكن التحدى يأتى من الواقع العربى، من التفاوت الشديد بين الفقراء والأغنياء تحت شعار الاشتراكية، ومن غياب الحرية والديموقراطية والتعددية السياسية تحت شعار الحرية، ومن واقع التجزئة القطرية والعرقية والطائفية تحت شعار الوحدة، ومن واقع التبعية والديون الأجنبية تحت شعار التنمية المستقلة.

لقد كان الهدف من الحروب التى خاضها العرب من أجل تحرير فلسطين منذ ١٩٤٨ حتى الانتفاضة والمقاومة الشعبية تحرير التراب الوطنى ضد العدوان الإسرائيلى والتوسع الصهيونى. كانت إسرائيل هى البادئة بالعدوان فى ١٩٤٨ ثم فى ١٩٥٦ ثم فى ١٩٦٧. وبدأ العرب فى ١٩٧٣ الحرب لإزالة آثار العدوان على مصر وسوريا. ولأول مرة يأخذ العرب المبادرة. ثم تأخذ فلسطين المبادرة الثانية بالانتفاضة والمقاومة الشعبية منذ ثورة عز الدين القسام فى الانتفاضة الفلسطينية الكبرى فى ١٩٣٦. وبدأ العرب بالتدريج، إزالة آثار العدوان فى ١٩٦٧ ثم التوجه إلى القضية الكبرى، احتلال فلسطين. وقد بدأ العرب تدريجيا إزالة آثار العدوان، نموذج مصر، وسوريا منذ حرب التحرير فى أكتوبر ١٩٧٣ واتفاقيات الفصل بين القوات حتى اتفاقيات طابا لاسترداد كامل سيناء. والمفاوضات السرية فى الطريق لاسترداد كامل الجولان، تتبعها المفاوضات اللبنانية لاسترداد كامل الجنوب.

لقد تعلم العرب أن التحرير لا يتم فوريا وبالوسائل العسكرية وحدها بل يمكن أن يكون تدريجياً، وأن يستأنف السلام ما بدأته الحرب. هكذا نشأت دولة إسرائيل منذ مؤتمر بازل فى ١٨٩٧ والدولة مازالت فكرة حتى الهجرات الأولى وإنشاء المزارع الجماعية فى العقد الأول من هذا القرن، ثم وعد بلفور فى ١٩١٧ ثم الهجرات الثانية التى فجرت الثورة الفلسطينية الكبرى فى ١٩٣٦ ثم الاحتلال فى ١٩٤٨ لثلاثة أرباع فلسطين، ثم عدوان ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧ واحتلال فلسطين

كلها، ثم الهجرات الثالثة بعد اتفاقيات كامب ديفيد، من الاتحاد السوفيتى من أجل إنشاء إسرائيل الكبرى.

وقد فرضت الانتفاضة الفلسطينية دولة فلسطين حتى أصبحت على مرمى حجر. وتم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى وحيد للشعب الفلسطينى. ثم عقدت اتفاقات أوسلو والقاهرة. وتم إنشاء أول سلطة فلسطينية فى غزة وأريحا ثم فى باقى مدن الضفة الغربية حتى مع وجود المستوطنات ودون المعابر، وحتى مع إعادة انتشار القوات الإسرائيلية خارج المدن. إن الواقع يخلق مساره، وبداية الحركة شرط استمرارها. وكما بدأت إسرائيل بالمستوطنات الأولى تبدأ فلسطين بغزة وأريحا ومدن الضفة حتى تنشأ دولة فلسطين على مجمل التراب الوطنى.

لا أحد يرفض المزيد، أرضا اكثر ووقتا أقل، ولكن التحدى كيفية الحصول عليه؟ وقد لا يرضى كل فلسطينى عن قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، تصوراً وممارسة. وإذا شاءت قيادة فلسطينية أخرى أن تنتخب من الشعب الفلسطينى وأن تتحدث باسمه وأن تفاوض لنيل حقوقه وتأخذ أكثر فلتفعل. لقد أثبتت المقاومة الفلسطينية بكل فصائلها وجودها أمام الشعب الفلسطينى وأمام العدو الصهيونى وقوات الاحتلال. والتحدى الآن أمامها إثبات وجودها كقوة سياسية لتفاوض باسم شعب فلسطين أمام الجماهير الفلسطينية فى الداخل وأمام العدو الصهيونى فى الخارج وأمام القوى الدولية التى تفرض نظاماً دولياً ذا قطب واحد.

لقد أنهت حرب أكتوبر ١٩٧٣ أسطورة العدو الذى لا يقهر بالرغم من استحكاماته ودفاعاته وتفوقه فى العدة والعتاد. كما أنهت الانتفاضة أسطورة نهاية شعب فلسطين. وأثبتت أن الجندى المدجج بالسلاح لا يستطيع الصمود أمام الطفل والمرأة والشيخ وبيده حجارة وعلى لسانه الحجة والدليل دفاعاً عن إرادة شعب. كما أثبتت حماس والجهاد أن الموت يمكن أن يأتى لإسرائيل فى عقر دارها ﴿يُدرككم

الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة﴾ (٤ : ٧٨). فالرغبة فى الاستشهاد أقوى من التمسك بالاحتلال.

ومع ذلك فلا تناقض بين العمل السياسى الذى تقوده منظمة التحرير الفلسطينية من خلال السلطة الوطنية الفلسطينية وبين المقاومة الفلسطينية بقيادة حماس والجهاد. الأولى الدرع الذى يحمى شعب فلسطين من الاحتلال، والثانية الرمح الذى يواجهه العدو. والمحارب فى حاجة إلى الاثنين معا، الدرع لمقاومة العدوان والرمح لردع العدوان. والضغط المستمر على العدو من حماس والجهاد يقوى ظهر السلطة الوطنية على مائدة المفاوضات. المهم عدم تجاوز الخط الأحمر وإراقة دم الفلسطينى بيد الفلسطينى.

إن التحدى الأكبر فى مرحلة صنع الوطن، دولة فلسطين القادمة، هو التنمية الاقتصادية لشعب فلسطين. فليس من المعقول أن يعيش الشعب المحتل، وأن يعتمد فى رزقه وقوت يومه على قوة الاحتلال، وأن يخنق غلق الضفة والقطاع شعب فلسطين، وأن يكون مصدر الرزق الأول له هو عدو الأمس، وأن يذهب العمل الفلسطينى لبناء الاقتصاد الإسرائيلى. وما الفائدة من التحرر السياسى مع التبعية الاقتصادية؟ وهل سيصبح مصير الدولة الفلسطينية هو مصير بعض الدول العربية؟ إن الحصار مهانة، والاستقلال السياسى لا قيمة له دون الاستقلال الاقتصادى.

وهنا يبرز دور العرب فى الاستثمارات داخل فلسطين، وتحويل العمالة الفلسطينية إلى داخل فلسطين، بدلاً من مزاحمتها بالعمالة الأجنبية والعربية داخل إسرائيل. تلك قضية العرب فى مرحلة بناء الوطن، دولة فلسطين. والمهارات الفلسطينية فى الداخل والخارج يشهد لها الجميع. ففى شعب فلسطين أكبر نسبة تعليم فى الوطن العربى. ومراكزهم القيادية فى الخارج فى مرحلة الشتات يمكن أن تتحول إلى الداخل فى مرحلة بناء الوطن.

ثم ينعكس بناء الوطن الفلسطينى على الوطن العربى. فقد أعطت الانتخابات الفلسطينية الأخيرة للسلطة الوطنية ولمجلسها التشريعى نموذجاً للتعددية السياسية،

وحرية القول والتعبير، والمساواة فى أجهزة الإعلام، وانتهاء أسطورة ٩٩,٩٪ التى أصبحت عار الأنظمة العربية. فما زالت الأنظمة العربية تخضع للحزب الحاكم، وهو الحزب الواحد، ومعارضتها مهمشة أو مستأنسة أو فى السجون.

كما ينعكس بناء فلسطين على وحدة العرب، والتقليل من خلافاتهم. فهى القضية التى يجتمع عليها العرب بصرف النظر عن نوعية النظم السياسية. فعلى أرض فلسطين التقى الإسلامى والقومى والماركسى والليبرالى فى عصر الشهداء. كذلك يلتقون عليها معاً فى عصر بناء الوطن. وفي وحدة العمل يتم التحاور بين الأطر النظرية المختلفة.

وإذا كانت فلسطين قد أعطت النموذج للحوار الفلسطينى الإسرائيلى فقد ينعكس ذلك على الحوار العربى العربى. وإذا كان العرب قد بدأوا أيضاً الحوار العربى الإسرائيلى فى مصر والأردن وسوريا فإنهم قد يبدأون الحوار العربى العربى فى مصر والعراق والكويت والسعودية واليمن وسوريا، لصياغة وطن عربى جديد قادر على التفاوض باسم الكرامة العربية لرفع الحصار عن العراق وليبيا وعدم اشتراكه فى فرض الحصار على أى قطر عربى مثل السودان أو على دولة جوار مثل إيران.

فإذا كان العرب قد وقفوا مع فلسطين فى الماضى فإن فلسطين قادرة على أن تقف مع العرب فى الحاضر والمستقبل.

٥ ـ ويل للعرب، من شر قد اقترب!

هو حديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام يذكره البخارى فى صحيحه فى الجزء التاسع فى كتاب الفتن مع أحاديث آخر الزمان. وهى الأحاديث التى تتبئ بمصير الأمة فى التاريخ وما يطرأ عليها من غوائل الزمن. وتؤيدها أحاديث أخرى تدور حول انهيار التاريخ مثل "خير القرون قرنى ثم الذى يلونهم"، وتحول الخلافة إلى ملك عضود، والحديث الشهير "جاء الاسلام غريباً، وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء".

ولا تشير هذه الأحاديث إلى فترات زمانية بعينها أو إلى عصور محددة بل إلى حال الأمة من أجل الوقوف أمام انهيارها والعمل على صعودها من جديد. هى مجرد إنذار وتنبيه على المخاطر المحدقة من أجل البحث عن الأسباب وتلمس سبل الخلاص. تعبر عن مسار التاريخ الذى حاول الفلاسفة إيجاد قانون له، قانون النهضة والسقوط على دورات متعاقبة كما حاول ابن خلدون عندنا، وكما حاول فلاسفة التاريخ فى الغرب، هردر، وفيكو، وكانط، ولسنج، وهيجل، وكوندرسيه، وروسو، وفولتير، ومونتسكيو، وأخيراً اشبنجلر وتوينبى وجارودى. وهو ما يتفق مع القرآن الكريم أيضاً ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (٣ : ١٤٠).

والحديث من جوامع الكلم بقدرته البلاغية وما فيه من رنين مثل الناقوس. وهو يتحدث عن العرب خصيصا وليس عن المسلمين أو الأمة بوجه عام. والشر اقترب، ولم يصبح خطراً داهما بعد من أجل الاستعداد له. والحديث ينبه على الخطر. ويترك البحث عن كيفية المواجهة لاجتهاد العرب والتفكير فيها من أجل عودتهم من جديد إلى مسار التاريخ بعد أن أصبحوا خارجه.

البيان ٢١/١٠/١٩٩٦.

فما هو الشر الذى اقترب بالنسبة لعصرنـا؟ لم يعد العرب سادة العالم كما كانوا من قبل. يرسلون الرسائل لهرقل عظيم الروم، ولكسرى عظيم الفرس، يدعونهما للتوحيد والمساواة بين البشر، وعدم اتخاذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، وتحرير الناس من الخوف والظلم والاستكانة، واستعلاء البعض على رقابهم. لم يحملوا لا إله إلا الله، هذا الإعلان عن تحرر البشر لأنهم افتقدوه. لم يشعروا أن رسالتهم فى الاتجاه غربا والاتجاه شرقا كما فعل العرب القدماء، غربا إلى أفريقيا وأوربا وشرقا إلى آسيا حتى يصبح العرب قلب العالم بجناحيه فى الغرب والشرق. لم يعد العرب فاتحين للأمم، موحدين بين الشعوب والأقوام. عز الطموح، وفترت الهمم، واثّاقل العرب إلى الأرض، وأخلدوا لها.

ورضى العرب بأن يكونوا من الجنوب بلغة العصر، ينتظرون العون، ويمدون يد المساعدة من الشمال. يفرحون بتخفيف الديون أو بتأييد القوى الكبرى كما يفعل الضعفاء. لم يعد العرب يسيطرون على العالم. لا يستثمرون ثرواته، ولا يؤسسون علوما، ولا يتخذون أسباب القوة والمناعة. أصبحوا مستهلكين لعلوم الغير، وناقلين لما يبدعه الآخرون.

وعز الطعام والسلاح. واستورد العرب ٧٠٪ من غذائهم من الخارج. والصحراء شاسعة تحتوى على الثروات الطبيعية. والأراضى الزراعية فى العراق والسودان ممتدة تستطيع إطعام العالم العربى كله بل ويصبح مصدرا للغذاء. تغذى العرب على قمح أمريكا وكندا واستراليا. واستوردوا السلاح للدفاع عن الأوطان ولم يصنعوه. ولديهم المال والخبرة والأسواق. والعلم متاح للجميع.

لم يعد للعرب حلما يعملون من أجله. وانحسر الشعر فى جوف العربى. وضاع الخيال لحساب العقل والآلة الحاسبة. بل إن الأحلام العربية المعاصرة قد أُجهضت ولم تعد هناك أحلام بديلة.

تم إجهاض الحلم الليبرالى باسم الثورات العربية المعاصرة. فالليبرالية رأسمالية وحكم الأقلية وإقطاع الباشوات والتحالف مع الغرب وفساد الأحزاب ولعبة السلطة والمال.

والحلم القومى زعامة لمصر أو للشام أو للعراق، والتخفى وراء الوحدة من أجل إملاء القطرية، وخطابة وشعارات بلا مضمون، ونيل من الحريات وحقوق الإنسان. ولم تستطع الصمود أمام الأحلام المناهضة، حلم الإستعمار والصهيونية. فاحتُلت نصف فلسطين فى ١٩٤٨ أثناء الحكم الليبرالى. واحتُل النصف الآخر فى ١٩٦٧ أثناء المد القومى.

والحلم الماركسى فى اليمن انتهى بصراع الرفاق فى الجنوب بين قبيلتين ماركسيتين بالرغم من الدولية الماركسية. ولم يستطع الصمود أمام المد القومى بإعلان وحدة الشمال والجنوب. والحلم الماركسى فى الشام والعراق فى تحالف مع القومية العربية انضوى تحت نظام الحكم، وأصبح مبرراً للأمر الواقع أكثر من تطويره وتغييره. وظل الحلم الماركسى فى مصر والمغرب العربى تحت الأرض فى حركات سرية تبنى طوباويات، وتتسم بفكر الأقليات المضطهَدة التى تريد فى وقت قريب أو بعيد السيطرة على العالم.

والحلم الإسلامى الذى بدأ حاملا لواء التحرر الوطنى إبان حركة الإصلاح الدينى انتهى إلى الانحسار. وتحول أيضاً إلى حلم تحت الأرض فى الحركات السرية والجماعات الإسلامية اللاشرعية والمهمشة خارج إطار العمل الوطنى العلنى. وتحول إلى تكفير المجتمع ورفضه، ينتظر الخروج عليه والانتقام منه. فإذا تم له ذلك بانقلاب مارس سياسة الاستبعاد والإقصاء، وحكم بمفرده كما هو الحال فى السودان وإيران أو تقاتل الفرقاء باسمه كما هو الحال فى أفغانستان.

ولم تعد الأحلام قادرة على حشد الناس بعد أن جربت نشأتها وذروتها ورأت حطامها. فارتكنت إلى الأرض وعادت، إلى عالم اليقظة تهب من أجل الخبز ضد البطالة كما حدث فى مصر والجزائر والمغرب والأردن، وربما من أجل

الكرامة أثناء حرب الخليج الثانية فى مصر والمغرب والأردن. وأصبح لكل عربى حلمه الصغير فى تحسين أحوال معيشته، سوقه ومتجره. ولم يكوّن مجموع هذه الأحلام الصغيرة حلما كبيراً قادراً على عبور حدود الأفراد والأقوام.

وبدأت الأحلام البديلة فى المنطقة تملأ الفراغ الناتج عن غياب الحلم العربى. وعاد حلم الاستعمار فى الهيمنة على المنطقة وجعلها محيطاً له وهو مركزها. وحاصرت أمريكا العراق وليبيا، وتهدد السودان وإيران، وتلوّح بقطع المعونات ويمنع لقمة الخبز. أصبحت الولايات المتحدة هى المدافع عن الحق العربى فى فلسطين، والحامى لجنوب لبنان، والواعد بالانسحاب من الجولان. فقد أوقفت مذابح المسلمين على أيدى الصرب فى البوسنة والهرسك، وتصالح بين الحزبين الكرديين المتصارعين كالقط الذى يحكم بين الفأرين المتنازعين على قطعة جبن. فيقسمها قسمين غير متساويين، ويظل يقضم الكبرى فتصغر، ثم يقضم الصغرى فتصغر أكثر حتى يأتى عليها كلها، حتى أصبحت لها الكلمة العليا من المحيط إلى الخليج فى غياب قوة أخرى وبعد نهاية عصر الاستقطاب.

وبدأ الحلم الصهيونى الذى لم ينحسر بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولا بعد الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وإقامة السلطة الوطنية الفلسطينية. بل زاد رسوخا وإعلانا عن نفسه بوضوح. إسرائيل الكبرى سياسيا على الأرض والأنظمة، واقتصاديا على ثروات العرب وأسواقهم. وبالرغم من مقاومة التطبيع شعبيا ثم رسميا بدأت تتكون طبقة من أصحاب رؤوس الأموال، يمهدون لسوق المستقبل أو من العمالة العربية توسيعا لها فى الرزق، ومن المثقفين العرب الذين سئموا النضال لأنهم لم يبدأوه.

وإن من مظاهر الشر الذى اقترب التخلى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والخوف على المصلحة الشخصية، والتضحية بالمصالح العامة. وأصبح الفكر تبريراً فى غالبيته وليس إرشادا وتوجيها. فانتشر الفكر الرسمى وزاد، وعز فكر المعارضة، وهرب خارج الأوطان.

كما ازدادت الهوة بين الأغنياء والفقراء وكأننـا نعيش فـى أمـم مختلفة. ففى مصر وحدهـا تعـادل الأمـوال الوطنيـة خـارج مصـر ثلاثـة أضعـاف ديـون مصـر. ومازال مسلسل تهريب الأموال إلى الخارج مستمراً ، تتعقبه الشـرطة الدولية أكثر مما يتعامل معه المستثمرون فـى الداخل. بل لقد سيطر الاقتصـاد علـى السياسـة، والثروة على الحكم فى نفس الوقت الذى تضعف، فيه أحزاب المعارضة للدفـاع عن الفقراء الذين لم يبق لهم إلا الهبّات الشعبية الوقتية بين الحين والآخر.

وضاعت الهوية أو كادت بعد أن زادت درجة التغريب والانحياز للآخر. مما دفع بالحركة السلفية إلـى التمسك بهـا حتـى ولـو كـانت المظـاهر والحـدود لإعـلان الرفض للتغريب والتميع والاندماج فى ثقافة الآخر ونمط حياته.

هذا هو الشر الذى اقترب. فلماذا الويل للعرب؟

ربما الويل للعـرب لأنهـم لـم يسـتعدوا لمواجهـة هـذا الشـر الـذى اقـترب. لـم يتحركوا بما فيـه الكفايـة، ولـم يسـتعدوا حتـى تكـون الاستجابة علـى قـدر التحـدى. استسلم العرب إلى الأمـر الواقـع، وارتكنـوا إلـى الدنيـا. وعـزت فيهـم صـرخـة ابـن الخطـاب "لمـاذا نقبـل الدنيـة فـى ديننـا؟" ودبـت روح اليـأس، وعـم الفتـور، وسـادت اللامبالاة. ولا شئ بمستحيل على الله. وقد نقـد القـرآن الكريـم الخوالـف والقـاعدين والذين اثاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا وآثروها على الآخرة.

ربما آثر العرب الهجرة إلى خارج الأوطـان، وربطـوا حيـاتهم بالخـارج إلـى أكـثر مـن الداخـل فـى الثروة والـرزق والمستقبل، لا فـرق فــى ذلـك بيـن سـلطة ومعارضة. مع أنه "لاهجرة بعد الفتح". وقد فتح الله على العرب البلاد مـن المحيط إلى الخليج، من أفريقيا إلى آسيا. أصبحت الأولوية للخارج على الداخـل، فـى العلـم والقوة والقصد والوجدان. وقد رفعنا فى الستينات شعار "يد تبنى ويد تحمل السلاح". وتحولنا الآن إلى شعار "يد تطلب الهجرة، ويد تطلب الرزق".

وتجزأ العرب، وضاعت وحدتهم الكبرى التى تحيل ضعفهم قوة، وليست فقط تلك التى تقلل المخاطر، وتمنع الاقتتال بين الإخوة الأعداء. وقد كانت غاية الإسلام الأولى توحيد العرب، وتطهير الجزيرة العربية من الشرك حتى يمكن للعرب الانطلاق خارجها شرقا وغربا، شمالا وجنوبا حتى تعربت آسيا وأفريقيا عبر الإسلام، وانتشر التوحيد باللغات القومية وإن لم يتم تعريب الأقوام. وتوحد عليهم العالم، الاستعمار والصهيونية وهم فى مرحلة التجزئة والتفتت والحروب الداخلية بين الأقطار والطوائف والنحل والأعراق.

ووجد العرب حلفاءهم فى الخارج. وناصروا الخارج على الداخل. الخارج صديق، والداخل عدو. وعزت المصالحة الوطنية، وندر الحوار الوطنى، وغابت الجبهات الوطنية المتحدة، ونسى العرب ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾ (٤٨ : ٢٩). وكيف ينحاز القلب إلى إحدى جناحيه؟ وكيف يتحول المركز إلى طرف من الأطراف؟ ولم يعد العرب يشعرون بالتمايز عن غيرهم بالرغم من قدرتهم على الجذب، جذب الآخر إليهم عبر السنين.

وربما نسى العرب تجارب الماضى، وانحسر وعيهم التاريخى فتأزم وعيهم السياسى. فقد حمل العرب لواء الرسالة أول مرة. "مرحى للعرب، من خير قد اقترب". لا يتعلم العرب من تاريخهم. فمازالوا فى التاريخ. ومازالوا حملة الرسالة. صدوا الغزوات من الغرب والشرق ثم من الغرب من جديد فى العصر الحديث. فهل مازال يصدق عليهم حديث الرسول"ويل للعرب، من شر قد اقترب" وإلى متى؟

٦ ـ التحدى والاستجابة

يتحرك التاريخ بمقدار ما يكون أمام المجتمعات من تحد وما تحدث أمامه من استجابة. هكذا تصور توينبى حركة التاريخ، قيام المجتمعات وسقوطها، وبداية الدورة الحضارية ونهايتها. وبلغة أبسط الحضارة هى مجموعة الإجابات لعدد من الأسئلة يطرحها الواقع فى زمان ومكان معينين. فالتحدى والاستجابة مصطلحان فى فلسفة التاريخ للسؤال والإجابة فى الفلسفة العامة.

وكلما عظم التحدى عظمت الاستجابة. وكلما ضعف التحدى ضعفت الاستجابة. وهو قانون طردى يفسر قيام الحضارات. أما إذا قوى التحدى وضعفت الاستجابة أو ضعف التحدى وقويت الاستجابة فى علاقة عكسية يكون ذلك نذيراً بنهاية الحضارات وسقوطها.

وغالبا ما يكون التحدى خارجياً. فالتحدى الخارجى يلم الشمل، ويطلق الطاقات، ويجنّد المجتمع، ويوحّد القوى. أما التحدى الداخلى فإنه قد يفرق المجتمع، ويشتت القوى، ويبرز التناقضات، ويظهر الاختلافات، ويبعثر الجهود إن كانت الاستجابة مجرد رد فعل وقتى بعيداً عن المصلحة العامة والهدف المشترك.

وينطبق ذلك على تاريخ العرب الحديث. كان الاستعمار تحدياً قويا فكانت الاستجابة قوية. قضى الاستعمار على وحدة الأمة بعد أن سقطت دولة الخلافة بعد هزيمتها فى الحرب الأولى، ومزقها قطعاً، واستولت كل قوة استعمارية خاصة انجلترا وفرنسا على جزء جزء فيها. فنشأت حركات التحرر الوطنى منذ احتلال الجزائر فى ١٨٣٠ حتى احتلال مصر فى ١٨٨٢ ثم باقى دول المغرب العربى، تونس والمغرب، واحتلال إيطاليا ليبيا، واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان، واحتلال بريطانيا لليمن وللخليج وللعراق. ونشأت الدول العربية المستقلة فخورة بنضالها الذى تحول إلى حركات شعبية وأحزاب وطنية. وكان لكل قطر إبداعه، الملكية

البيان ١٦/٩/١٩٩٦

الوطنية فى المغرب، المقاومة الشعبية المسلحة فى الجزائر، الانقلاب العسكرى فى ليبيا ومصر والعراق، الكفاح المسلح فى اليمن، المفاوضات فى تونس والخليج، ضرّب دمشق فى سوريا. ورفعت عدة شعارات تجسد هذه المرحلة من الاستجابات مثل "الجلاء التام أو الموت الزؤام"، "لا مفاوضة إلا بعد الجلاء"، "تحيا وحدة وادى النيل"، "بالروح، بالدم، نفديك ياجمال"، " عاش كفاح الشعب المصرى"، "عاش كفاح الشعب العربى" ... إلخ.

وتأخرت قضية فلسطين. فالاستعمار الاستيطانى أصعب مراسا وأقوى جذوراً من الاستعمار التقليدى. يقوم على دعاوى الاختيار وأرض الميعاد والمدينة المقدسة والميثاق فى وقت كان العرب فيه يحاربون على جبهتين، جبهة الاستعمار الخارجى، وجبهة اليقظة والنهضة والتحديث الداخلى. وبالرغم من الاستجابة القوية لهذا التحدى القوى منذ الهجرات اليهودية الأولى إلى فلسطين فى أوائل هذا القرن والتى بلغت الذروة فى ثورة عز الدين القسام فى ١٩٣٦ فإن هزيمة ١٩٤٨ بعد تدخل الجيوش العربية وقعت وقع الصاعقة. وكانت أحد أسباب الثورات العربية بعد ذلك فى الخمسينات. فالاستجابات متوالية طالما أن التحدى قائم. ثم بلغت ذروتها الثانية بانطلاق المقاومة الفلسطينية فى ١٩٦٥، ومعركة الكرامة فى ١٩٦٧ والمقاومة فى جنوب لبنان فى أرض فتح. ثم بلغت ذروتها الثالثة فى الانتفاضة منذ ١٩٨٩، واستمرار المقاومة الإسلامية حماس فى قبول التحدى حتى تحرير كامل التراب الوطنى.

وأيقظت مأساة فلسطين العرب كقضية مشتركة. الجميع مسؤول عنها مع شعب فلسطين. وساهمت فى وحدتهم وتعميق نضالهم حتى أصبحت قضية العرب الأولى، قدس الأقداس الذى لايمكن لأحد المساس به أو التفريط فيه. وتوسع الاستعمار الاستيطانى فى فلسطين، وابتلع كل فلسطين وسيناء والجولان وجنوب لبنان تحقيقا لحلمه الكبير "من النيل إلى الفرات" تجاوزاً لأرض الميعاد بعشرات المرات.

والآن يعظم التحدى الخارجى أكثر فأكثر بعد صعود اليمين الإسرائيلى للحكم، بالرغم من أن الخلاف بين اليمين واليسار اختلاف فى الأسلوب والمنهج وليس فى المضمون والغاية. وتبدو اللاءات الثلاث صياغة جديدة لعظم التحدى: لا للانسحاب من الجولان، لا لتجميد المستوطنات، ولا للانسحاب من القدس. ويزداد التحدى يوما وراء يوم: قرار المحكمة الإسرائيلية لليهود بالصلاة فى المسجد الأقصى وتقسيمه على الأمد القريب وربما هدمه على الأمد البعيد بعد تقسيم الحرم الإبراهيمى، قرار توسيع المستوطنات، ونزع أراضى القرى الفلسطينية لشق طرق جديدة تربط المستوطنات، التهديد بغلق بيت الشرق، حصار مناطق الحكم الذاتى وحق العودة إليها، الأمن قبل السلام، مقاومة الإرهاب، التأييد الأمريكى لليمين الإسرائيلى، السلاح النووى، رفض التوقيع على معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل .. إلخ.

فماذا تكون الاستجابة الممكنة التى تعادل عظم هذه التحديات؟ لايقوى على الصمود أمام اليمين الإسرائيلى إلا حركة المقاومة الإسلامية والقومية التى تكبده الخسائر اليومية فى جنوب لبنان، واضطرته أخيراً كى يقترح "لبنان أولاً" حفاظاً على أرواح جنوده، وحصاراً لسوريا، وتأجيل قضية الجولان إلى الأبد مادامت الضغوط على شمال إسرائيل من جنوب لبنان قد خفت أو انتهت. فلا يفل الحديد إلا الحديد.

والاستجابة لتحدى توسيع المستوطنات، هو تحويل حياتهم إلى جحيم فى فلسطين بالتصفية اليومية حتى تتحول إلى جزر منعزلة لا يمكن الدفاع عنها إلا بانتشار جيش الدفاع الإسرائيلى كله من جديد حماية للمستوطنين. مائة ألف يحرسهم نصف مليون، خمسة جنود لكل مستوطن. وفى نفس الوقت يتحرك عرب فلسطين قبل ١٩٤٨ للمطالبة بالمساواة فى الحقوق السياسية مادامو يعيشون كمواطنين لهم نفس الحقوق التى يكفلها الدستور. وعلى أقصى تقدير يكون لعرب فلسطين قبل ١٩٤٨. نفس الحقوق التى للمستوطنين اليهود فى الأراضى المحتلة،

وأن يكون لهؤلاء نفس الوضع الدستورى الذى لعرب فلسطين قبل ١٩٤٨، مواطنون متساوون فى الحقوق مع شعب فلسطين إن أرادوا البقاء وليس مستوطنات عسكرية مدججة بالسلاح تستهلك من المياه عشرات أضعاف ما تستهلكه قرى فلسطين، دولاً داخل الدولة.

أما الاستجابة لتحدى القدس وغلق بيت الشرق وكافة مكاتب منظمة التحرير والسلطة الوطنية الفلسطينية وتهويد القدس وحصارها بالمستوطنات من أجل إعادة بناء الهيكل على قبة الصخرة فإنها فى قلوب ملايين المسلمين العرب والأفارقة والآسيويين والأوربيين والأمريكيين المسلمين من أصل أفريقى، القادرة على حرق كل شئ دفاعاً عن بيت المقدس أولى القبلتين وثانى الحرمين. وتتضامن معهم المؤسسات الدينية الإسلامية، الأزهر والزيتونة والقرويين وأم درمان والنجف وبيروت ودمشق وبخارى وسمرقند وطشقند وجاكارتا وكوالالمبور. كما تتضامن معهم الكنيسة الشرقية فى موسكو وأثينا والحبشة. فالمدينة المقدسة مهد الديانات الثلاث. وإذا رفع اليمين الإسرائيلى سلاح الدين والعقائد فإنه يكون على حق يدافع عن تاريخه وتراثه. وإذا رفع العرب المسلمون نفس السلاح فإنهم يكونون متعصبين إرهابيين يعلنون الجهاد والقتال بالسيف، ويطالبون الناس بالإسلام أو الجزية أو القتال، حربٌ دينية مقدسة من مخلفات الماضى البعيد.

وإذا بلغ التحدى مداه فى وصف المقاومة الوطنية المشروعة فى جنوب لبنان وفى الأراضى المحتلة بالإرهاب، وعقدت لذلك المؤتمرات الدولية لمقاومة الإرهاب وجعل الضحية هو الجانى، والخلط بين المقاومة المشروعة فى الأراضى المحتلة وإرهاب اليمين الإسرائيلى، واغتيال رابين، وإرهاب اليمين الامريكى فى تفجير الطائرات، وإلقاء القنابل فى أطلانطا، وتفجير المبنى الفيدرالى فى أوكلاهوما ومن قبلها اغتيال مارتن لوثر كنج وجون كيندى وزعماء الفهود السوداء فإن الاستجابة لذلك تكون بمزيد من المقاومة فى الأراضى المحتلة وتكلفة اليمين الإسرائيلى مزيداً من الأرواح.

وإذا بلغ التحدى مداه فى جعل سوريا مظلة للإرهاب وإيران مصدره، وحماس منفذه، فإن الاستجابة لذلك تكون بمزيد من الصمود لسوريا وبحوار مع دول الجوار فى إيران وبتنسيق مع حماس من السلطة الوطنية الفلسطينية جمعاً بين الرمح والدرع، الرمح للطعن والدرع لتلقى الطعان، بين الهجوم والدفاع.

وإذا كان الهدف إحراج مصر، زعيمة العرب بالاعتداء على جنوب لبنان ومذبحة قانا، وتهديد سوريا من الشمال بحلف مع تركيا، وبإثارة قضايا الصواريخ المصرية والمعونات الأمريكية، وبفتح الحدود مع ليبيا، وبرفض حصار السودان، وبإثارة قضية الأسلحة النووية الإسرائيلية، وبالسلام البارد ورفض التطبيع فإن الرد على ذلك بمزيد من الدفاع عن مركزية مصر واستقلالها الوطنى، وقيادتها للعالم العربى، وبدورها الحضارى، وبعمقها التاريخى، وبأهميتها الجغرافية، وبأنه لا بديل عنها كنقطة ارتكاز فى المنطقة، ومحور جذب لها. وهو ما تحاول إسرائيل القيام به ملوّحة بالأموال والمساعدات والتجارة والأمن والرخاء.

وإذا لوّحت إسرائيل متحدية صورة العالم العربى بصورة أخرى أكثر تقدما وحضارة، حقوق الإنسان، والتقدم التكنولوجى، والتفوق العسكرى النووى والتقليدى فإن الاستجابة تكون بالمزاوجة بين حقوق الإنسان وحقوق الشعوب. حقوق الإنسان منتهكة عند العرب وفى إسرائيل عند مسجونينا السياسيين وعند السجناء الفلسطينيين فى سجون إسرائيل سواء بسواء ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله﴾ (٣ : ١٤٠). إنما نزيد عليها حقوق الشعوب وحق الجماعات ضد صنوف العنصرية والعدوان. والتقدم التكنولوجى غربى المنشأ فى إسرائيل، ويمكن السيطرة عليه واستيعابه. والمهاجرون العرب فى الخارج على أرفع مستوى من التقدم العلمى. وليس ببعيد أن يتم التفوق العلمى مع المحافظة على الشخصية الوطنية كما فعلت دول آسيا. أما التفوق العسكرى والنووى فإن السلاح وحده دون

الرجال ودون القضية يكون مجرد أكوام من الحديد. وحرب أكتوبر ١٩٧٣ شاهد على ذلك.

واستشهاد الرجال قادر على التفوق على الحصون ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾ (٥٩ : ٢). ﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ (٥٩ : ١٤).

وإذا كان التحدى بمتوسط الدخل الفردى فى إسرائيل الذى يفوق متوسط الدخل الفردى فى مصر بأربعين مرة فإن ذلك ناتج عن سوء توزيع الدخل القومى عند العرب. فلدينا من يفوق فى متوسط الدخل الفردى فى إسرائيل عشرات المرات بثروات وطنية وليس بمساعدات أجنبية كالكويت مثلا. كما يمكن أن تكون الرفاهية عامل سلب وأن يكون الفقر عامل إيجاب فقد استطاع العرب قديما بسلاح العقيدة والمثل الإنسانية الجديدة فتح إمبراطوريتى الفرس والروم بما فيهما من حضارة ورفاهية، غرساً لرمح الفارس فى البساط الأعجمى، رافضاً السجود لبشر أو الدخول لقصر سيراً على الأقدام إلا فوق فرسه.

وإذا كان التحدى هو القلة التى تغلب الكثرة، خمسة ملايين فى مقابل ما يزيد على مائتى مليون عربى، وأربعة عشر مليونا فى الداخل والخارج فى مقابل ما يزيد على البليون مسلم فإنها حجة مزدوجة. فالكيف عندنا أيضاً فى الرغبة فى الشهادة والقنابل البشرية. وقد وقع الإسرائيلى أسيراً فى حرب أكتوبر وهو قابع داخل الحصون. وقد استطاع أطفال الحجارة والنساء والشيوخ الوقوف أمام الجندى المدجج بالسلاح عاجزاً عن المقاومة، يتآكل داخليا، وينهار معنويا أمام إرادة الشعوب.

إنما التحدى الحقيقى ليس هو التحدى الخارجى حتى تعظم الاستجابة، إنما هو التحدى الداخلى الذى مازال أمام العرب قبوله والاستجابة له بنفس القدر: تحدى أحادية الطرف والفردية فى الحكم واتخاذ القرار والاستجابة له بالتعددية السياسية وحق الاختلاف، وتحدى التسلط والقهر والاستجابة له بالديموقراطية، وتحدى الخرافة والجهل والاستجابة له بمزيد من العقلانية، وتحدى خرق حقوق الإنسان والمواطن والاستجابة له بالدفاع عن حقوق الإنسان ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ (٥ : ٣٢). تحدى النفس قبل تحدى الآخر ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (١٣ : ١١).

٧- المصالحة الوطنية

لقد تأخرت المصالحة الوطنية عندنا، نحن العرب، أكثر مما ينبغى. وطال الخصام بين الفرقاء. وفى تراثنا القديم الذى أصبح أهم مكوّن لثقافتنا المعاصرة لا يجوز للأخ مخاصمة أخيه أكثر من ثلاث ليال. ونحن يخاصم بعضنا بعضا منذ بداية الثورات العربية المعاصرة فى مطلع الخمسينات أى ما يقرب من نصف قرن!

لقد استطاعت حركات التحرر الوطنى تجميع كل القوى الوطنية إبان حروب التحرير وحركات الاستقلال. فالهدف واضح، والعدو مشترك، والوطن محتل، والبنادق كلها موجهة إلى صدور الأعداء فى الخارج. ولم يكن هناك فرق بين الحركات الإسلامية والحركات الوطنية، بين الماركسيين والقوميين، بين المحافظين والتقدميين، بين الاغنياء والفقراء. هكذا يفعل العرب فى لحظات الخطر الخارجى، وربما هكذا تفعل كل الشعوب. الخطر الخارجى يوحد قوى الداخل، والصراع الداخلى يوّحد الأعداء فى الخارج.

وبعد انتصار حركات التحرر الوطنى، وتأسيس الدول الحديثة والبداية بالمشاريع القومية المعاصرة فى التنمية كان الزعماء الوطنيون هم البديل عن المصالحة الوطنية. فقد اكتسبوا الشرعية التاريخية من النضال الوطنى حتى لو وضعوا فرقاء الأمس فى السجون. فالمركب تحتاج إلى ربان واحد. هكذا تصور الزعماء. وبدأت تصفية الفرقاء فى شتى أرجاء الوطن العربى. وقبلت الشعوب ذلك طالما أن التنمية تحقق الرفاهية، وطالما أن هناك الحد الأدنى من الكرامة الوطنية.

كان عبد الناصر هو الصوت المعبّر عن هذه الزعامة الوطنية حتى ولو أدار دفة الحكم بمفرده. فقد أولته الجماهير ثقتها، وسلمته قيادها، ووضعت أمانة فلسطين فى عنقه حتى ولو كان الإخوان والماركسيون والليبراليون فى السجون على

البيان ١٩٩٦/١٠/١٤

التبادل، مرة هذا الفريق، ومرة ذاك الفريق. فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة. وفى تحالف قوى الشعب العامل البديل عن التعددية السياسية. وفى الإنجاز الفعلى للسياسات الوطنية ولمشاريع التنمية والدفاع عن محدودى الدخل وزيادة الدخل القومى مرة كل عشر سنوات خير رد على الأيديولوجيين المذهبيين، إسلاميين أو ماركسيين. فالخبز أولى من الحرية.

وبعد هزيمة ١٩٦٧ وانهيار الحلم القومى ثم اختفاء زعامة عبد الناصر بدأت القوى السياسية فى الظهور من جديد بتكوين المنابر داخل الحزب الواحد ثم الأحزاب السياسية المستقلة حتى ولو كانت بعد موافقة السلطة. ولكن "إزالة آثار العدوان" كان مازال هدفا قادرا على توحيد الجميع. فالأرض محتلة، والعدو يطعن فى الكرامة.

واستطاعت حرب أكتوبر ١٩٧٣ توحيد العرب من جديد. وأبلى العرب بلاء حسنا فى الحرب وفى الاقتصاد، سلاح النفط. وعادت للعرب الكرامة. وكما توحد العرب فى عدوان ١٩٥٦ والذى كان من آثاره وحدة مصر وسوريا فى ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ توحد العرب من جديد. وكان من آثارها مشاريع السلام التى جاءت مبكرة أكثر من اللازم والعرب لم يحرروا بعد أراضيهم. فأصبحت رهينة السلام. التحرر فورى، والسلام يطول.

ولما طال السلام أكثر من اللازم ولم تتحرر الأرض، ولم يأت السلام على مدى عشرين عاما، وزاد تفرق العرب بعد حرب الخليج الأولى وبعد حرب الخليج الثانية، وضرب الحصار على العراق وعلى ليبيا، واشتدت النعرة القطرية على حساب الوحدة العربية، وتفاقمت أزمة الحريات وحقوق الإنسان، وازداد الفقر، وعمّت مظاهرات الخبز، أصبح الجو فى الداخل والخارج مهيئا لعودة القوى السياسية المستبعدة فى العقود الأخيرة إلى الشارع السياسى العربى تحاول أن تكون الملاذ والمخلّص والتى ستملأ الأرض عدلا كما مُلئت جورا بتعبير القدماء.

وأصبحت الأزمة أكثر تعقيدا. فالاستعمار الجديد يتشكل بعد أن أصبح العالم ذا قطب واحد بعد انهيار المعسكر الاشتراكى، والرأسمالية تجدد نفسها، والشركات العابرة للقارات تستأسد بثروات العالم، واقتصاد السوق يسود، واتفاقية الجات ملزمة لشعوب العالم الثالث. وعلى الجميع الدخول بيت الطاعة: حروب داخلية محدودة من أجل حل تمليه الولايات المتحدة أولا ثم أوربا الغربية ثانيا قسرا أو بإرادة حرة مستقلة نسبيا.

وفاوض العرب أعداء الأمس وهم فى أضعف لحظاتهم وفى نظام دولى جديد متربص بهم. وآثر العرب سياسة "خذ وطالب" حتى لو طال الوقت. فالسلام معركة من معارك الحرب. وتفرقت القوى السياسية، واختلفت حول مشاريع السلام بين الحد الأدنى والحد الأقصى، بين الجزء والكل، بين التفريط والإفراط، بين الواقع والمثال، بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون.

وبعد صعود اليمين الإسرائيلى ضاع هذا القليل الذى أخذه العرب أو أصبح مهددا بالضياع: تراجع عن الحكم الذاتى، وعن إقرار مبدأ الانسحاب من الجولان، ومد الشريط الحدودى جنوب لبنان، والتوتر مع مصر والأردن، وإهانة العرب، والتلويح بأزمة الديموقراطية وحقوق الإنسان. وبان للعرب أن العدو عدو، والصديق صديق.

وبدأت مظاهر المقاومة تعود إلى الوجدان العربى منذ مؤتمر القمة العربى فى يونيو الماضى، والإجماع على الحد الأدنى من المطالب العربية، ورفض رئيس أكبر دولة عربية الذهاب إلى قمة واشنجطن فى ذات الشهر بلا جدول أعمال، وعقد العزم على عقد مؤتمر القمة العربى الثانى فى دمشق فى الشهر التالى، وقبول الكويت حضور العراق، والتنسيق مع دولة الجوار تركيا بعد زيارة أربكان لمصر.

وبدأت روح المقاومة تسرى فى الأراضى المحتلة فى فلسطين. وقام الشعب الفلسطينى فى القدس ومدن الضفة بالدفاع عن المقدسات الإسلامية. وسقط الشهداء.

وعادت روح الانتفاضة التى تتجاوز هذه المرة الرشق بالحجارة. ونفذ صبر العرب شعوباً وقادة. وتوحد الرأى العام العربى. واستعد العرب لمواجهة قادمة بالسلم أولا.

ومع ذلك، يحتاج العرب إلى وقفة مع النفس كما يقومون الآن بوقفة مع الآخر، وترتيب البيت من الداخل قبل الوثوب إلى الخارج، وتجميع القوى فى الداخل من أجل حشد الطاقات وتوحيد الإمكانيات. يحتاج العرب إلى مصالحة مع النفس قبل المصارحة بينهم وبين أنفسهم وقبل المصالحة بينهم وبين العالم.

يحتاج العرب إلى مصالحة وطنية تاريخية عامة بين كل القوى السياسية القديمة والجديدة ورفقاء النضال. فالوضع الآن شبيه بمعركة التحرر الوطنى التى بدأت منذ نصف قرن من الزمان، معركة التحدى بين الأنا والآخر، وقضية الوجود والاستمرار فى التاريخ.

لا يستطيع القادة العرب، خاصة قادة مصر، الدخول فى أكثر من معركة فى نفس الوقت، معركة فى الداخل ومعركة فى الخارج، معركة فرعية ومعركة رئيسية. فأمام العدو الصهيونى المشترك لجميع القوى السياسية فى البلاد، إسلامية وقومية وماركسية وليبرالية يحتاج الأمر إلى توحيد الجهود، وحشد الطاقات، والمصالحات الوطنية فى الداخل من أجل الصمود فى الخارج. فليس من المعقول أنه فى الوقت الذى يقف فيه القادة العرب، قادة مصر، بكرامة وإباء أمام العدو الإسرائيلى دفاعا عن الحق العربى التوجه إلى الهجوم على الجماعات الإسلامية فى الداخل. ألاَ يَجُبّ التناقض الرئيسى التناقض الفرعى؟ وماذا عن المثل الشعبى "أنا وخويا على ابن عمى، وأنا وابن عمى على الغريب"؟ وماذا عن الآية القرآنية التى تعطى مثلا لتوحيد الداخل لمواجهة الخارج ﴿أشداء على الكفار، رحماء بينهم﴾ (٤٨ : ٢٩)؟

وإذا كان الإخوة فى الخليج قد بدأوا فى الأخذ بعين الاعتبار مثلنا العربى "عفا الله عما سلف" بالرغم مما نالهم من احتلال وضياع، فلماذا لا يأخذ باقى القادة

العرب نفس الشعار بالنسبة لقوى المعارضة في الداخل؟ صحيح أن محاولة اغتيال رئيس جمهورية مصر العربية جريمة لا تغتفر أخلاقيا وسياسيا وقانونيا ووطنيا. وصحيح أن مدبريها والمسؤولين عنها ومنفذيها لابد أن يكونوا تحت طائلة القانون، ويحاسبوا وينزل بهم أشد العقاب، عقاب المجرمين. فمن شهر سيفا فى وجه أخيه فهو قاتل سافك للدماء.

ولكن الآن الخطر أعظم، والمسامحة قيمة عربية. والدخول فى معارك فرعية مثل اتهام الجماعات الإسلامية فى مصر، واتهام السودان، واتهام إيران تشتيت للجهود فى وقت يحتاج العرب إلى تجميعها، وبعثرة للانتباه، وإضعاف للجبهة الداخلية، وتقوية للجبهة الخارجية.

إن ترتيب البيت العربى من الداخل يبدأ بالمصالحة الوطنية داخل كل قطر عربى خاصة مصر الشقيقة الكبرى ثم بالحوار القومى العام داخل الوطن العربى. البداية بالدار قبل الخروج إلى المدينة. وقد أخرج عبد الناصر الإخوان من السجون، ووزع عليهم السلاح لردع العدوان الثلاثى على مصر فى ١٩٥٦. فما الصعوبة فى إيجاد ميثاق شرف وطنى لإيقاف الصراع السياسى فى الداخل من أجل مواجهة العدو فى الخارج؟

إن رفع الحصار عن العراق وليبيا، ووقف التهديد للسودان وإيران، والسير فى طريق الحوار الذى بدأ مع تركيا هو بداية ترتيب البيت العربى من الداخل. فليس المقصود من حصار العراق الآن هو تحرير الكويت أو حمايتها من التهديد العراقى بل تكبيل العرب وتهميش قوة تضاف إلى الرصيد العربى. وليس الغرض من حصار ليبيا هو تسليم متهمين بل إذلال العرب فى ديارهم وأخذهم بالشبهات. وقد بان أخيراً أن تفجير الطائرة الأمريكية على مقربة من نيويورك ربما يكون قد تم بفعل صاروخ أمريكى للتدريب.

إن المصالحة الوطنية التاريخية بين فرقاء النضال شرط أساسى لمواجهة العدو الصهيونى فى المرحلة القادمة. وفى احتفالات مصر بنصر أكتوبر هذا العام عادت أغانى العروبة. فاهتز الوجدان العربى وفى مقدمتها "وطنى حبيبى الوطن الاكبر". فما ضاع يمكن أن يعود. وعادت الأغانى الوطنية لعبد الحليم حافظ مع إخراج جديد فى التليفزيون المصرى تعد الشعب للمواجهة فى مرحلة قادمة قد لا تطول.

إن المرشح للصمود بجانب الدولة فى المرحلة القادمة ومن أجل القدس هى الحركة الإسلامية التى تعرف النضال على ربوع فلسطين بجانب الجيوش العربية منذ ١٩٤٨. فمازالت هى القادرة على حشد الجماهير العربية والتظاهر فى الجامعات كما حدث أخيرا فى مصر والمغرب بعد فتح نفق البراق. وهى التى تقاوم على الأرض فى جنوب لبنان وفى فلسطين. فلماذا استبعادها من المصالحة الوطنية وتأجيل الصراع السياسى معها حتى تتحرر القدس وفلسطين وجنوب لبنان؟

والقوميون أيضا بكل فصائلهم قادرون على ذلك. والمصالحة معهم أسهل من الدولة لأن الدولة مازالت ترى نفسها وريث الحركات الوطنية التقليدية التى صارعت الاستعمار، وناهضت العدو الصهيونى فى حروبها السابقة. وقد بدأ الحوار بينهم وبين الإسلاميين فى عديد من أرجاء الوطن العربى. ولكنه ظل حوارا بين قادة وليس تجميعا للقوى بين جماهير. ومازال السؤال: أين جماهير عبد الناصر وبن بلاً ومحمد الخامس والصالح بن يوسف وعمر المختار والمهدى والزبيرى؟ مازالت المظاهرات فى الجامعات من أجل القدس تقودها الحركة الإسلامية دون الحركة القومية. وقد كانت القوى القومية حاضرة مع الحركة الإسلامية أثناء العدوان الأمريكى على العراق.

أما الماركسيون والليبراليون فما زالت الساحة مفتوحة أمامهم كقوى وطنية تقليدية قبل الثورات العربية وبعدها. فالأولوية للواقع على الفكر، وهذا هو صلب

الجدل عند الماركسيين. والأولوية للوطن على الاقتصاد الحر، وهذه ركيزة الليبرالية. فالحرية للوطن تسبق حرية السوق.

ليس هذا وقت بيان العيوب والاتهامات المتبادلة، والنقص في النظرية والممارسة. فليس الوقت هو الصراع على السلطة في الداخل بل الوقوف أمام العدو في الخارج. وماذا يفيد تكرار الانتقادات المتبادلة الآن؟ ومن منا لايسلم بها؟ العنف والغضب والشكلية والتعصب عند الإسلاميين، وأزمة الحريات العامة عند القوميين، وحرفية الماركسيين، واقتصاد السوق عند الليبراليين؟ لاوقت لذرف الدموع ولا على نبش القبور واسترجاع أحزان الماضي. ولا وقت للصراع على السلطة والدول مهددة، والأرض محتلة، والكرامة مستباحة، والوطن مهان.

إن المصالحة الوطنية التاريخية بين كل فرقاء النضال بالأمس واليوم ضرورة قصوى لإعادة ترتيب البيت العربي من الداخل في مرحلة المواجهة القادمة مع الخارج. وليس من الصعب تحديد هدف قومي مرحلي يعمل من أجله الجميع: تحرير القدس. وإذا تحررت القدس تحررت فلسطين. فالقدس قلب فلسطين. وإذا تحررت فلسطين تحرر جنوب لبنان والجولان. فالقدس أولا. فإذا كان "لبنان أولا" يفرّق العرب فإن "القدس أولا" توحّد العرب وتجمّع المسلمين من حولهم.

إن أزمة العرب على مدى التاريخ هي القدرة على حساب الإمكانيات، والتحول من الضعف إلى القوة، من الفرقة إلى الوحدة. تلك كانت تجربة العرب الأولى مع انتشار الاسلام، وتجربتهم الثانية مع صلاح الدين للدفاع عن البيضة بتعبير الفقهاء. وتلك كانت تجربة العرب الحديثة منذ محمد على إلى عبد الناصر.

فهل يستمر العرب في تجربة جديدة أثبت التاريخ صدقها؟

٨ـ وحدة نظم أو وحدة شعوب؟

ليس الحديث عن الوحدة العربية من مخلفات الماضى أو من لغة الستينات التى ولّت أو مجرد أمانى وظنون أو أحلام يقظة أو أغانى وطنية لم نعد نسمعها عن "الوطن الأكبر" بل هى حقيقة جغرافية وتاريخية. ومازالت قادرة على الدفاع عن العرب وتحقيق مصالحهم فى عالم متغير ذى قطب واحد. ومازالت تجربة الوحدة فى دولة الإمارات العربية المتحدة وفى اليمن حقيقة فعلية، صامدة عبر العواصف ومخاطر الانقسام. ومازالت تجربة الوحدة بين مصر وسوريا فى ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ بالرغم من عدم استمرارها وعيوبها من أهم التجارب الوحدوية فى تاريخ العرب الحديث. وما أخطر ما مر بهم من مآسى تفوق تجربة الانفصال، حصار ليبيا والعراق، والاعتراف بالعدو الصهيونى.

والتعلم من الماضى جزء من الوعى التاريخى ومهامه. إذ لم تفترق تجارب الوحدة الماضية عن تجارب نشأة الأقطار العربية بعد الحرب العالمية الأولى وتمزيق دولة الخلافة إلى دويلات يتم توزيعها كغنائم بين القوى الغربية المنتصرة أو بين القبائل والأسر العربية التى ساعدت المنتصرين ضد الأتراك أو بمعاهدات بين فرنسا وانجلترا أو بأحلاف وقواعد عسكرية ومناطق نفوذ للغرب. بل إن الجامعة العربية ذاتها إنما نشأت أيضا فى هذا الإطار فى البداية كمنظمة إقليمية، وإن كان مضمونها يعبر عن الوجود العربى المشترك.

كانت تجارب الوحدة الأولى منذ إبراهيم باشا حتى عبد الناصر تجارب فوقية، بالفتح والحرب عند إبراهيم باشا بين مصر والشام أو بالاتفاق بين الزعماء عند عبد الناصر ثم التأييد الشعبى لهم ثقة بهم واعتزازا بأشخاصهم مثل الوحدة المصرية السورية فى ١٩٥٨ ـ ١٩٦١ وكل تجارب الوحدة الأخرى بين مصر وليبيا والسودان، مصر وسوريا واليمن، مصر وسوريا والعراق، سوريا

البيان ١٩٩٦/٣/٢٥.

والعراق... إلخ. كانت وحدة بين الزعماء الوطنيين، أخوة وتعاطفا وحمية بصرف النظر عن الواقع الوحدوى. كانت وحدة نظم سياسية فى مرحلة التحرر العربى، من أجل تقوية النظم التقدمية العربية فى مواجهة النظم الرجعية، وتأكيدا على الدور التحررى للقومية العربية فى قوى التقدم فى العالم الثالث، فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية.

كانت وحدة عاطفية تعبر عن أحلام العرب وضميرهم التاريخى وانطلاقهم أحرارا فى عصر التحرر من الاستعمار، وكما عبر عنها "صوت العرب"، "أيها الأحرار فى كل مكان". فالتحرر فى النهاية حركة رومانسية قبل أن يكون مصالح اقتصادية، واستقلال سياسى للشعوب. كان العرب يمرون بأزهى فترة فى تاريخهم الحديث، من دولة الخلافة إلى دول محتلة إلى دول مستقلة إلى وطن عربى كبير. وتربت أجيال بأكملها على هذه الروح التى لم تفرق بين الوطنية والقومية، فالكل أجزاء من الأمة العربية قسّمها الاستعمار وفرق بينها.

وكانت وحدة فورية تتم بمجرد لقاء الزعماء الذين كانوا يجسدون آمال الشعب العربى. فالثورة لا تعرف إلا الانطلاق، تجرف القوانين والدساتير والنظم أمامها. وكان مضمون الوحدة العربية مضمونا ثوريا تقدميا فى مواجهة النزعات الانفصالية الرجعية المحافظة. وربما تم ذلك تحت ضغط الظروف والمخاطر واحتماءً بالقومية العربية فى مواجهة الشيوعية وخطرها كما حدث قبيل تجربة الوحدة المصرية السورية، وارتماء سوريا فى أحضان مصر خير من ارتمائها فى أحضان موسكو. وبمجرد أن تهدأ العواطف تبدأ المشاكل، وفور انتهاء الحلم تبدأ العودة إلى الواقع. وبعد الانتصار على التمزق يبدأ خطر الانفصال.

وكانت وحدة اندماجية، فى الرياسة والحكومة والمؤسسات، ابتداء من رموز الدولة: العلم، والنشيد، والمقعد فى الأمم المتحدة، والتمثيل الدبلوماسى فى الخارج، والجيش، والأمن، والداخلية، والمخابرات، والأسماء مثل الإقليم الشمالى والإقليم

الجنوبى، وانتقال الحكام من الجنوب إلى الشمال، والقوات من الشمال إلى الجنوب لدرء المخاطر وحماية الوحدة.

والأخطر من ذلك كله، كانت وحدة النظم سياسية، لتقوية بعضها البعض ضد قوى المعارضة ولحساب الحزب الواحد الحاكم. تقتضى حل الأحزاب والتنظيمات السياسية، وتأميم الصحافة، وإنشاء الحزب الواحد. ولما استحال ذلك بعد تاريخ نضالى طويل فى مصر وسوريا والعراق والسودان واليمن، تحولت كثير من القوى السياسية إلى قوى مناهضة للوحدة، تعمل فى الخفاء من أجل العودة إلى التعددية السياسية وحرية التعبير، عن حق أو عن باطل. وإذا أمكن السيطرة على مصر فمن الصعب السيطرة على سوريا. وتعذّر كل راغب فى الانفصال بغياب الحرية، واحتج كل مناوىء للوحدة بغياب الحريات العامة، وسيطرة دولة المخابرات، وحكم المكتب الثانى.

فإذا كانت الوحدة العربية مازالت فى القلوب، وتعبر عن طموحات العرب وبعضا من أحلامهم التى لم تجهض فهل يمكن تحويلها من القلوب إلى الأذهان، من وحدة النظم إلى وحدة الشعوب؟ فالنظم متغيرة، والشعوب باقية، النظم عنصر تفريق والشعوب عنصر توحيد. هل تستطيع الشعوب أن تصلح ما تفسده النظم؟

وتتجلى وحدة الشعوب فى وحدة الثقافة. وتتجاوز الثقافة الأدب والرواية والمسرح والشعر والقصة والمسلسل الإذاعى والتلفزيونى والأفلام وأخبار النجوم إلى الثقافة السياسية، وحرية انتقال الكتب السياسية والدينية، وحرية انتقال الصحف والمجلات والنشرات الإعلامية. فمصادرة الفكر مصادرة للوحدة. ووحدة الفكر بداية وحدة الأمة. وليس من المعقول أن تخشى النظم السياسية بكل ما أوتيت من أجهزة للأمن وقوات مسلحة وشرطة من قلم يكتب أو فكرة تنتشر. وتتعامل الرقابة مع الصحف والمجلات والكتب تعاملها مع المجرمين والنشالين وقطّاع الطرق وتجار المخدرات. يعرف المثقفون العرب ما ينشر داخل أوطانهم فى الخارج

ويهربونها إلى الداخل، وهو أولى بالانتشار فى الداخل علنا وليس سرا. فالفكر ليس جريمة.

كما تتجلى وحدة الشعود، فى حرية الانتقال من قطر عربى إلى قطر عربى آخر دون تأشيرات دخول أو خروج. فليس من المعقول أن ينتقل الأجانب أحرارا فى الوطن العربى، ويظل العربى حائرا بين السفارات العربية فى بلده واقفا بالأيام أمام الأبواب، مستيقظا قبل الفجر للانتظار أمام الشبابيك للحصول على تأشيرة للدخول إلى جزء من وطنه. صحيح أن الحدود من وضع الاستعمار ولكنها من توظيف النظم السياسية وإبقائها لتكريس الانفصال بحجة الدفاع عن الأقطار. والأقطار القليلة التى تسمح بدخولها دون تصريح فى تناقص مستمر مثل مصر والمغرب، مصر والسودان، مصر وتونس. ومازالت بوارق أمل بين مصر وسوريا، مصر والأردن، مصر والعراق، مصر وليبيا. ومازالت سوريا والعراق تمارسان بالفعل وحدة الوطن الأكبر ولا تتطلبان تأشيرة دخول.

وحرية الانتقال فى الجامعات جزء من حرية الوطن الأكبر. فليس من المعقول أن يذهب الطلاب العرب إلى أوربا وأمريكا لدراسة فروع موجودة فى الوطن العربى وعلى نحو أفضل، وبتكلفة معيشية أقل، ودون مخاطر الغربة. لقد كانت وحدة الوطن العربى فى وحدة نظمه التعليمية وحرية الانتقال بين جامعاته دون تمييز بين الطلبة العرب. ولما تحول التعليم إلى تجارة فى عصر الانفتاح فرضت الرسوم على الطلاب من أجل تكريس التجزئة والإبقاء على الانفصال. فأصبح التعليم ترفا أقل من متطلبات السياحة العربية.

وأخيرا يأتى التبادل الاقتصادى الحر دون حواجز جمركية للانتاج الزراعى والصناعى العربى. فليس من المعقول أن يكون حجم التبادل التجارى العربى العربى أقل عشرات المرات من حجم التبادل التجارى العربى الأوربى أو العربى اليابانى أو العربى الأمريكى. فالوحدة مصالح للشعوب وللأفراد وليست مجرد نوايا طيبة وشعارات للتربية القومية. وإذا كان العرب يتجهون إلى الاقتصاد الحر،

واقتصاد السوق كما يفرضه النظام العالمى فالأولى تطبيقه بين العرب قبل تطبيقه بين العرب وغير العرب.

يستطيع رأس المال العربى المشترك أن يكون أحد عوامل التنمية العربية. والعقول العربية التى تخطط لاقتصاديات العالم المحلية والدولية، والسواعد العربية التى تبنى خارج بلاد العرب قادرة على البناء والتعمير فى الداخل. والمشروعات المشتركة العربية وإمكانيات تنمية الموارد يعرفها أهل الخبرة والاختصاص، زراعة أراضى الجزيرة فى السودان، الوادى الجديد فى مصر، زراعة سيناء وتعميرها، زراعة ما بين الرافدين فى العراق، هيئة التصنيع العربى. وتستطيع السوق العربى التى تعادل فى الاستهلاك السوق الأمريكى أو الأوربى أو اليابانى أن تستهلك المنتجات العربية بدلاً من أن تكون سوقا للإنتاج العالمى. والتكامل الاقتصادى العربى مدروس من قبل، ومعروف فى مراكز البحث والتخطيط. وقد تمت من قبل صياغة السوق العربية المشتركة أسوة بالسوق الأوربية المشتركة ولكنه خضع لمجريات الأحداث وتقلبات السياسة.

لا يعنى ذلك أن الأرض ممهدة تماما. فما زال منطق الخصام والمصالحة هو الغالب على العلاقات العربية العربية. يكفى أن تهرب المعارضة السياسية من قطر إلى قطر، وتمارس نشاطها حتى تتأزم العلاقات، وتنقطع الصلات. ولو أن كل نظام عربى كان نظاما تعدديا يسمح بمعارضة سياسية لما اضطرت المعارضة إلى الفرار إلى الخارج. بل ولفظها الوطن العربى كله حتى تستقر فى لندن وباريس ونيقوسيا وروما.

كما أن ممارسة العنف بين قطر عربى وقطر عربى آخر كما هو الحال فى حرب الخليج الثانية أو داخل كل قطر كما هو الحال فى مصر والجزائر يمنع من الاستقرار الاجتماعى وبالتالى من معدلات التنمية. كما أن اختلاف مستويات الدخل فى العالم العربى، فى الأسعار والأجور وأنماط الحياة تجعل وحدة السوق فى

محاباة الأغنياء ولغير صالح الفقراء، بالإضافة إلى اختلاف العادات والتقاليد بين المحافظة والتقليد من ناحية والعصرية والحداثة من ناحية أخرى. ومع ذلك فكل تحد له موقف، وكل صعوبة لها حل عن طريق تدخل النظام العربى لحماية محدودى الدخل. وما أكثر سياحة المجتمعات التقليدية إلى مصر ولبنان والمغرب.

ليس الأمر صعب المنال. فتجارب الوحدة مازالت صامدة، دولة الإمارات العربية المتحدة، الجمهورية العربية اليمنية. ومازالت مجالس التعاون قائمة مثل مجلس التعاون الخليجى. ومازالت لجان التنسيق العربية تعمل وتخطط، وتخطو رويداً رويدا مثل لجان التنسيق بين مصر وسوريا، مصر والسعودية، مصر والأردن... الخ. ومازالت الجامعة العربية ومنظماتها تحتفظ بالحد الأدنى من التقارب والحوار العربى العربى حتى ولو توقفت حاليا مؤتمرات القمة التى هى أقرب إلى مستوى النظم منها إلى مستوى الشعوب.

إن العالم يتغير، ومازال يتشكل ويصبح عالما ذا قطب واحد، يسيطر على المنظمات الدولية السياسية والاقتصادية. والعرب يعترفون بإسرائيل ويخرجون إلى دوائر أخرى غير الدائرة العربية إلى الشرق أوسطية أو المتوسطية. وينحازون للغرب، ويتحالفون مع الولايات المتحدة الأمريكية. وهنا لزم إعادة النظر فى التجربة العربية الوحدوية، والمحافظة على الوطن العربى من مخاطر الذوبان فى دوائر أوسع أو التجزئة إلى كيانات أصغر. مازالت الوحدة العربية قائمة على مستوى الوجدان والتاريخ والجغرافيا والثقافة والمصلحة. إنما السؤال: هل هى وحدة نظم أم وحدة شعوب؟